٨ د س

شَحْذُ الهِمَّة

تجاه طلب العلم عند سلف الأمَّة



علي بن عبد العزيز موسى

دار طويق للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[آل عمران]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾[النساء]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أَمَّا بَعْدُ:

«فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»(١).

أخي القارئ: هذه صفحات لطيفة في بيان حال السلف في طلب العلم، وما لقوا في تحصيله من المشاق والمتاعب، وما ركبوه من المخاوف والأهوال، فقد جعلوا الهم واحداً، ورضوا بالعلم دليلاً ورائداً، لا يقطعهم عنه جوع ولا ظمأ، ولا يملُّهم منه صيف ولا شتاء. هجروا الفرش الوطيء، والمضجع الشهي، قد أوجع الكل أصلابهم، وأرهق السمر عيونهم. لبسوا ثوب الخضوع، يمشون على الأرض هونا، عقولهم بلذة السنة عامرة، تعلم السنن سرورهم، ومجالس العلم حبورهم، وأهل السنة قاطبة إخوانهم، وأهل الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم. فلله درهم، ونسأل الله أن يرزقنا سلوك سبيلهم، وأن يجمعنا برحمته في الجنة بهم. هذا وإن كنت لم أصل إلى

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ «بَاب تَخْفِيفِ الصَّلَاةِ وَالْخُطْبَةِ» (٨٦٧)، والنَّسَائِيُّ «باب كَيْفَ الْخُطْبَةُ» (٣/ ١٨٨)، وأَحْمَدُ (١٤٣٧٣). وَقَدْ تفرَّد النَّسَائِيُّ بِلَفْظَةِ: «وكل ضلالة فِيْ النار»، وَهِيَ صَحِيحَةٌ. رَاجِعْ: «صَحِيحُ الجَامِعِ» (١٣٥٣).

شيء مما وصله إليه سلفنا الصالح في طلب العلم، ولا الرحلة لتحصيله، ولكني أمتثل قول ابن مسعود ﷺ حيث قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قومًا ولم يحلق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب»(١).

علمًا بأنه قد جاء هذا الكتاب ـ والله الحمد – مخرجة أحاديثه، معزوة الآثار إلى أصحابها، فما كان من صواب فمن الرحيم الرحمن، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان، وأحمد الله على توفيقه للصواب، وأستغفره سبحانه من الزلل والخطأ.

(١) رواه البخاري «كتاب الأدب ـ باب علامة الحب في الله لقول الله تعالى: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ [آل عمران: ٣١] » (رقم ٦١٦٩ وغيره)، ومسلم «كتاب البر والصلة والآداب ـ باب : المرء مع من أحب» (رقم ٢٦٤٠)، والحديث جاء من طريق أنس رضي الله عنه عند أحمد وأصحاب السنن عدا ابن ماجه – راجع «صحيح الجامع» (برقم ٦٦٨٩).

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: وُجُوبُ إِخْلَاصِ النِّيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي طَلَبِ الْعِلْمِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

وَقَالَ ﷻ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾.

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ سَعِيدِ ابْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يَعْنِي رِيحَهَا.

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ».

وَأَخْرَجَ الدَّارِمِيُّ فِي «سُنَنِهِ» عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: مَنْ طَلَبَ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْعِلْمِ فَأَرَادَ بِهِ مَا عِنْدَ اللهِ يُدْرِكْ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَمَنْ أَرَادَ بِهِ الدُّنْيَا فَذَاكَ حَظُّهُ مِنْهُ. اهـ

وَأَخْرَجَ الدَّارِمِيُّ فِي «سُنَنِهِ»، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ»، عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: مَنِ ابْتَغَى شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ سُبْحَانَهُ، آتَاهُ اللهُ مِنْهُ مَا يَكْفِيهِ. اهـ

وَقَالَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْجَامِعِ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ»: وَلْيَتَّقِ الْمُفَاخَرَةَ وَالْمُبَاهَاةَ بِهِ، وَأَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ نَيْلَ الرِّئَاسَةِ، وَاتِّخَاذَ الْأَتْبَاعِ، وَعَقْدَ الْمَجَالِسِ. اهـ

وَقَالَ ابْنُ أَبِي يَعْلَى فِي «طَبَقَاتِ الْحَنَابِلَةِ»: قَالَ الْمَرُّوذِيُّ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ - وَذَكَرَ لَهُ الصِّدْقَ وَالْإِخْلَاصَ -، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: بِهَذَا ارْتَفَعَ الْقَوْمُ. اهـ

وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «الْحِلْيَةِ» عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: وَدِدْتُ أَنَّ الْخَلْقَ يَتَعَلَّمُونَ هَذَا الْعِلْمَ وَلَا يُنْسَبُ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ. اهـ

وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ أَيْضًا فِي «الْحِلْيَةِ» عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: مَا ناظَرْتُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا أَحْبَبْتُ أَنْ يُوَفَّقَ وَيُسَدَّدَ وَيُعَانَ، وَيَكُونَ عَلَيْهِ رِعَايَةٌ مِنَ اللهِ وَحِفْظٌ، وَمَا نَاظَرْتُ أَحَدًا إِلَّا وَلَمْ أُبَالِ بَيَّنَ اللهُ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِي أَوْ لِسَانِهِ. اهـ

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ»: لَمَّا كَانَ الْمُتَزَيِّنُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ ضِدَّ الْمُخْلِصِ،

عَامَلَهُ اللهُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ؛ فَإِنَّ الْمُعَاقَبَةَ بِنَقِيضِ الْقَصْدِ ثَابِتَةٌ شَرْعًا وَقَدَرًا، وَلَمَّا كَانَ الْمُخْلِصُ يُعَجَّلُ لَهُ الْحَلَاوَةُ وَالْمَحَبَّةُ وَالْمَهَابَةُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ عُجِّلَ لِلْمُتَزَيِّنِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ مِنْ عُقُوبَتِهِ أَنْ شَانَهُ اللهُ بَيْنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ شَانَ بَاطِنَهُ عِنْدَ اللهِ، وَهَذَا مُوجَبُ أَسْمَاءِ الرَّبِّ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا وَحِكْمَتِهِ فِي قَضَائِهِ وَشَرْعِهِ. اهـ

الْفَصْلُ الثَّانِي: التواضع مع العلماء وتوقيرهم.

إن التواضع مع العلماء وتوقيرهم سبيل لنيل الخير الذي عندهم، ولقد ضرب سلفنا الصالح في ذلك أروع المثل، ومن ذلك:

الأول: نبي الله موسى عليه السلام يتواضع مع العلماء.

أخرج الشيخان عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ تَمَارَى هُوَ وَالحُرُّ بْنُ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ الفَزَارِيُّ فِي صَاحِبِ مُوسَى، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ خَضِرٌ، فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، فَدَعَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَى، الَّذِي سَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَى لُقِيِّهِ، هَلْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟»، قَالَ مُوسَى: لَا، فَأَوْحَى اللهُ ﷻ إِلَى مُوسَى: بَلَى، عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ الحُوتَ آيَةً، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَارْجِعْ، فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ، وَكَانَ يَتَّبِعُ أَثَرَ الحُوتِ فِي البَحْرِ، فَقَالَ لِمُوسَى فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾، قَالَ: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، فَوَجَدَا خَضِرًا، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا الَّذِي قَصَّ اللهُ ﷻ فِي كِتَابِهِ».

قال الْحَافِظُ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» (١/ ١٢١): فِي الْحَدِيث جَوَاز التَّجَادُل فِي الْعِلْم إِذَا كَانَ بِغَيْرِ تَعَنُّت، وَالرُّجُوع إِلَى أَهْل الْعِلْم عِنْدَ التَّنَازُع، وَالْعَمَل بِخَبَرِ الْوَاحِد الصَّدُوق، وَرُكُوب

الْبَحْر فِي طَلَب الْعِلْم بَلْ فِي طَلَب الِاسْتِكْثَار مِنْهُ، وَمَشْرُوعِيَّة حَمْل الزَّاد فِي السَّفَر، وَلُزُوم التَّوَاضُع فِي كُلّ حَال، وَلِهَذَا حَرَصَ مُوسَى عَلَى الِالْتِقَاء بِالْخَضِرِ عليه السلام وَطَلَب التَّعَلُّم مِنْهُ تَعْلِيمًا لِقَوْمِهِ أَنْ يَتَأَدَّبُوا بِأَدَبِهِ، وَتَنْبِيهًا لِمَنْ زَكَّى نَفْسه أَنْ يَسْلُك مَسْلَك التَّوَاضُع.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٥) في بيان فضائل شرف العلم وأهله: الوجه الرابع والثلاثون: أن الله سبحانه أخبرنا عن صفيه وكليمه، الذي كتب له التوراة بيده، وكلمه منه إليه، أنه رحل إلى رجل عالم يتعلم منه، ويزداد علماً إلى علمه، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠]. حرصاً منه على لقاء هذا العالم، وعلى التعلم منه، فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه، وقال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]. فبدأ بعد السلام بالاستئذان على متابعته، وأنه لا يتبعه إلا بإذنه، وقال: على أن تعلمني مما علمت رشدا، فلم يجيء ممتحنا ولا معنتاً، وإنما جاء متعلماً مستزيداً علما إلى علمه. وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعلم، فإن نبي الله وكليمه سافر ورحل حتى لقي النصب من سفره، في تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم، ولما سمع به لم يقر له قرار حتى لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه.

الثاني: حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يتوسد رداءه على باب شيخه حتى تسفي الريح على وجهه التراب، ويكره أن يوقظه.

أخرج الحاكم في «المستدرك»، وصححه، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى»، وابن كثير في «البداية والنهاية»: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُمُ الْيَوْمَ كَثِيرٌ»، فَقَالَ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَتَرَى النَّاسَ يَفْتَقِرُونَ إِلَيْكَ وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَنْ فِيهِمْ؟، قَالَ: «فَتَرَكْتُ ذَاكَ، وَأَقْبَلْتُ أَسْأَلُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنْ كَانَ يَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ، فَآتِي بَابَهُ وَهُوَ قَائِلٌ،

فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ، يَسْفِي الرِّيحُ عَلَيَّ مِنَ التُّرَابِ، فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي» فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا جَاءَ بِكَ؟ هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟، فَأَقُولُ: «لَا، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ»، قَالَ: فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ، فَعَاشَ هَذَا الرَّجُلُ الْأَنْصَارِيُّ حَتَّى رَآنِي وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلِي يَسْأَلُونِي، فَيَقُولُ: «هَذَا الْفَتَى كَانَ أَعْقَلَ مِنِّي».

قال الحاكم رَحِمَهُ اللهُ: وَهُوَ أَصْلٌ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ. وَتَوْقِيرِ الْمُحَدِّثِ.

الثالث: التابعي الجليل عروة بن الزبير بن العوام رَحِمَهُ اللهُ يقع له مثل ما وقع لابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

ذكر الْحَافِظُ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ في «تاريخ الإسلام»، وفي «السير» أيضا في ترجمة عروة بن الزبير رَحِمَهُ اللهُ، قال: لَقَدْ رَأَيْتَنِي قَبْلَ مَوْتِ عَائِشَةَ بِأَرْبَعِ حِجَجٍ وَأَنَا أَقُولُ: لَوْ مَاتَتِ الْيَوْمَ مَا نَدِمْتُ عَلَى حديثٍ عِنْدَهَا إلا وَقَدْ وَعَيْتُهُ. وَلَقَدْ كَانَ يَبْلُغُنِي عَنِ الرَّجُلِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْحَدِيثُ فَآتِيهِ فَأَجِدُهُ قَدْ قَالَ – أي: نام نومة القيلولة –، فَأَجْلِسُ عَلَى بَابِهِ فَأَسْأَلُهُ عَنْهُ، يَعْنِي إِذَا خَرَجَ.

وعلى الدرب سار الأئمة من بعدهم، ومن ذلك:

الرابع: الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ وحاله مع شيخه الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ.

يقول: «كنت أصفح الورقة بين يدي مالك رَحِمَهُ اللهُ صفحاً رفيقاً هيبة له، لئلا يسمع وقعها».

ولما كان الشافعي بهذا الأدب والتواضع مع العلماء رزقه الله تلاميذ في غاية الأدب معه، فالجزاء من جنس العمل.

الخامس: الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعي رحمهما الله.

أخرج ابن عساكر في «تاريخ دمشق»، والبيهقي في «المدخل»، عَنِ الرَّبِيعِ ابْنِ سُلَيْمَانَ، قَالَ: وَاللهِ مَا اجْتَرَأْتُ أَنْ أَشْرَبَ الْمَاءَ وَالْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ يَنْظُرُ إِلَيَّ هَيْبَةً لَهُ.

السادس: الإمام أحمد، إمام أهل السنة والجماعة يأخذ بركاب شيخه.

ذكر الذهبي في «السير»، و «تذكرة الحفاظ» عن أَبِي الحَسَنِ بنِ العَطَّارِ قال رَحِمَهُ اللهُ: رَأَيْتُ أَحْمَدَ بنَ

حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَأْخُذُ لِدَاوُدَ بنِ عَمْرٍو بِالرِّكَابِ.

الْفَصْلُ الثالث: السلف والرحلة في طلب العلم.

لكم لاقى السلف من التعب والنصب، وكم قطعوا من المسافات الطويلة من أجل تحصيل العلم، وأخذه من منابعه، فحفظ الله بهم الدين، ونصر بهم الملة، فلله درهم، وإليك طرفا من أخبارهم:

الأول: سفر الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مسيرة شهر من الجزيرة إلى الشام في طلب حديث واحد.

قال الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في (صحيحه» (في كتاب العلم ـ بَابُ الخُرُوجِ فِي طَلَبِ العِلْمِ، وَرَحَلَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَسِيرَةَ شَهْرٍ، إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ).

الثاني: سيد التابعين سعيد بن المسيب عالم المدينة النبوية.

ذكر الذهبي في «السير»، وابن سعد في «الطبقات» عَنْ مَعْنِ بْنِ عِيسَى، أَخْبَرَنَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: «إِنْ كُنْتُ لَأَسِيرُ اللَّيَالِيَ وَالْأَيَّامَ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ».

الثالث: التابعي الجليل أبو قلابة (عبد الله بن زيد) الجرمي البصري.

أخرج الْحَافِظُ أبو عمر ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «إِنْ كُنْتُ لَأَسِيرُ اللَّيَالِيَ وَالْأَيَّامَ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ.

الرابع: الْحَافِظُ الإمام الفقيه المحدث أبو يعقوب إسحاق بن منصور الكوسج المروزي، تلميذ الإمام أحمد، وراوي «المسائل» في الفقه عنه، يحمل بعض مسائل الإمام أحمد التي بلغه أنه رجع عنها في جراب على ظهره، ويمشي على رجليه من نيسابور ـ في بلاد خرسان ـ إلى بغداد بالعراق،

ليعرضها عليه!!

ذكر ابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (١/ ١١٤)، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٥٢٤)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٧/ ٣٨٥) عن حسان بن محمد قال: سمعت مشايخنا يذكرون أن إسحاق بن منصور بلغه أن أحمد بن حنبل رجع عن بعض تلك المسائل التي علقها عنه، قال: فجمع إسحاق بن منصور تلك المسائل في جراب ، وحملها على ظهره، وخرج راجلًا إلى بغداد وهي على ظهره، وعرض خطوط أحمد عليه في كل مسألة استفتاه فيها، فأقر له بها ثانيا، وأُعجب أحمد بذلك من شأنه».

الخامس: الإمام أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي يرحل في طلب العلم سبع سنين ماشيا أكثر من ثلاثة آلاف مِيلًا على قدميه!!

قال الشيخ إسماعيل بن محمد الأصبهاني الملقب بقَوَّام السُّنة رَحِمَهُ اللَّهُ في «سير السلف الصالحين» (١١٢٧، ١١٢٨): في ترجمة الإمام أبي حاتم الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: أَحْصَيْتُ مَا مَشَيْتُ عَلَى قَدَمِي فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ زِيَادَةً عَلَى أَلْفِ فَرْسَخٍ، سِرْتُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَرَّاتٍ، وَمِنَ الْبَحْرَيْنِ إِلَى مِصْرَ، وَمِنْ مِصْرَ إِلَى الرَّمْلَةِ، وَمِنَ الرَّمْلَةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَطَبَرِيَّةَ، وَمِنْ طَبَرِيَّةَ إِلَى دِمَشْقٍ، وَمِنْ دِمَشْقٍ إِلَى حِمْصٍ، وَمِنْ حِمْصَ إِلَى أَنْطَاكِيَةَ، وَمِنْ أَنْطَاكِيَةَ إِلَى طَرَسُوسَ، ثُمَّ رَجَعْتُ مِنْ طَرَسُوسَ إِلَى حِمْصَ، فَكَانَ بَقِيَ عَلَيَّ شَيْءٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الْيَمَانِ، فَسَمِعْتُ ثُمَّ خَرَجْتُ مِنْ حِمْصٍ إِلَى بِيسَانَ، وَمِنْ بِيسَانَ إِلَى الرَّقَّةِ، وَمِنَ الرَّقَّةِ رَكِبْتُ الْفُرَاتِ إِلَى بَغْدَادَ، وَخَرَجْتُ قَبْلَ خُرُوجِي إِلَى الشَّامِ مِنْ وَاسِطٍ، وَمِنْ وَاسِطٍ إِلَى الْكُوفَةَ، كُلُّ ذَلِكَ أَمْشِي، هَذَا فِي السَّفَرِ الْأَوَّلِ، وَأَنَا ابْنُ عِشْرِينَ سَنَةً أَجُولُ سَبْعَ سِنِينَ، خَرَجْتُ مِنَ الرَّيِّ سَنَةَ ثَلَاثِ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ.

السلف وكتابة العلم:

لقد كانت همة السلف عجيبة في كتابة العلم وتدوينه، حتى أن العبد لتصيبه الدهشة حينما يقرأ

أحوالهم في ذلك، ولقد حث النبي ﷺ على كتابة العلم وتدوينه، أخرج الشهاب في «مسنده» وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (رقم: ٤٤٣٤) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ».

- وذكر الدمياطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين» عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ قال:

الْعِلْمُ صَيْدٌ وَالْكِتَابةُ قَيْدُهُ قَيِّدْ صُيُودَكَ بِالْحِبَالِ الْوَاثِقَهْ

فمِنْ الْحَمَاقَةِ أَنْ تَصِيدَ غَزَالَةً وَتَفُكَّهَا بَيْنَ الْخَلَائِقِ طَالقَهْ

فكم من الفوائد تُنسى إذا لم تكتب؛ ولذا حرص السلف على كتابة العلم، وإليك طرَفًا من ذلك :

الأول: التابعي الجليل سعيد بن جبير. أخرج الدارمي في «سننه» (١/ ١٠٥) عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: كُنْتُ أَسْمَعُ مِنِ ابْنِ عُمَرَ وابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الْحَدِيثَ بِاللَّيْلِ فَأَكْتُبُهُ فِي وَاسِطَةِ الرَّحْلِ.

- أخرج ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٦/ ٢٥٧) عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «رُبَّمَا أَتَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَكَتَبْتُ فِي صَحِيفَتِي حَتَّى أَمْلَأَهَا، وَكَتَبْتُ فِي نَعْلِي حَتَّى أَمْلَأَهَا، وَكَتَبْتُ فِي كَفِّي، وَرُبَّمَا أَتَيْتُهُ فَلَمْ أَكْتُبْ حَدِيثًا حَتَّى أَرْجِعَ، لَا يَسْأَلُهُ أَحَدٌ عَنْ شَيْءٍ».

- لقد استحق سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ أن يحيل عليه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الفتوى، أخرج ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٦/ ٢٥٧) عَنْ يَعْقُوبَ الْقُمِّيِّ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي الْمُغِيرَةِ، قَالَ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بَعْدَمَا عَمِيَ إِذَا أَتَاهُ أَهْلُ الْكُوفَةِ يَسْأَلُونَهُ، قَالَ: تَسْأَلُونِي وَفِيكُمُ ابْنُ أُمِّ دَهْمَاءَ. قَالَ يَعْقُوبُ: يَعْنِي سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

الثاني: الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ. ذكر الْحَافِظُ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «سير

أعلام النبلاء» (١٠/ ١١ - ترجمة الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ -) عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ فِي الأَكتَافِ وَالعِظَامِ، وَكُنْتُ أَذْهَبُ إِلَى الدِّيْوَانِ، فَأَسْتَوْهِبُ الظُّهُوْرَ، فَأَكْتُبُ فِيْهَا.

الثالث: الْحَافِظُ أبو عبد الله ابن منده (محمد بن إسحاق) رَحِمَهُ اللَّهُ. قال الْحَافِظُ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تذكرة الحفاظ» (٣/ ١٠٣٢).: كانت كتبه عدةَ أحمال، حتى قيل إنها كانت أربعين حملًا.

والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا، ولعل فيما ذُكِرَ كفاية لدفع الهمة للصبر في كتابة العلم.

السلف والسمر في طلب العلم:

- لقد علم السلف قدر العلم وأنه خير ما يسمر فيه، فاشتهت أنفسهم ذلك.

ذكر الْحَافِظُ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في «البداية والنهاية» (١١/ ٦٤١) عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لابنه يزيد:

فَبَاشِرِ اللَّيْلَ بِمَا تَشْتَهِي فَإِنَّمَا اللَّيْلُ نَهَارُ الْأَرِيبِ

ومن المعلوم لدى كل بصير أنه لابد لنيل المطالب العالية من تنازل عن مرغوب محبوب دونها، والعلم مرغوب سام، ومحبوب غال، وشرف رفيع، ومطلبٌ صعبُ المسالك، كثيرُ العقبات، لا يمكن بلوغه إلا بتنازلات كثيرة، وتضحياتٍ كبيرةٍ، في المال، والوقت، والراحة، وأُنْسِ الأهل والأصحاب، وسائرِ المُتع المشروعة.

أخرج مسلم عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ».

- إن أخبار العلماء في الدعةِ وهجرِ اللذات، والانهماك في العلم، والترامي على أبواب المشايخ، والصبر على تباين طبائعهم، والتأدب معهم، ورعاية راحتهم لنيل العلم كثيرة لا تُحصى، ومن ذلك:

الأول: الْحَافِظُ أبو هشام مغيرة بن مقسم الضَّبِّيُّ. ذكر الْحَافِظُ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير»

(٦/ ٣٤٨ - فِي تَرْجَمَةِ عَبْدِ اللهِ بنِ شُبْرُمَةَ بنِ طُفَيْلِ بنِ حَسَّانٍ الضَّبِّيِّ) عَنْ فُضَيْلُ بنُ غَزْوَانَ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: كُنَّا نَجلِسُ أَنَا، وَابْنُ شُبْرُمَةَ، وَالحَارِثُ بنُ يَزِيْدَ العُكْلِيُّ، وَالمُغِيْرَةُ، وَالقَعْقَاعُ بنُ يَزِيْدَ بِاللَّيْلِ، نَتذَاكَرُ الفِقْهَ، فَرُبَّمَا لَمْ نَقُمْ حَتَّى نَسْمَعَ النِّدَاءَ بِالفَجْرِ.

الثاني: الإمام عبد الله بن المبارك. ذكر الذهبي في السير (٨/ ٤٠٤ - ترجمة عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ) عن عَلِيُّ بنُ الحَسَنِ بنِ شَقِيْقٍ قال: قُمْتُ لأَخْرُجَ مَعَ ابْنِ المُبَارَكِ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ مِنَ المَسْجِدِ، فَذَاكَرَنِي عِنْد البَابِ بِحَدِيْثٍ - أَوْ ذَاكَرْتُهُ - فَمَا زِلْنَا نَتَذَاكَرُ حَتَّى جَاءَ المُؤَذِّنُ لِلصُّبْحِ.

- وذكر الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٧٦) عن عَلِيَّ ابْنَ الْحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ قال: «كُنْتُ مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ فِي الْمَسْجِدِ فِي لَيْلَةٍ شَتْوِيَّةٍ بَارِدَةٍ، فَقُمْنَا لِنَخْرُجَ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ ذَاكَرَنِي بِحَدِيثٍ أَوْ ذَاكَرْتُهُ بِحَدِيثٍ، فَمَا زَالَ يُذَاكِرُنِي وَأُذَاكِرُهُ حَتَّى جَاءَ الْمُؤَذِّنُ فَأَذَّنَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ».

الثالث: الإمام عبد الرحمن بن قاسم العُتَقِي، المصري: ذكر القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (٣/ ٢٥٠) عنه أنه قال: كنت آتي مالكًا غلسًا فاسأله عن مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدر، فكنت آتي كل سحر. فتوسدت مرة عتبته، فغلبتني عيني فنمت، وخرج مالك إلى المسجد ولم أشعر به، فركضتني جارية سوداء له برجلها، وقالت لي: إن مولاك قد خرج، ليس يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة قلما صلى الصبح إلا بوضوء العتمة، ظنتِ السوداء أنه مولاه من كثرة اختلافه إليه.

الرابع: أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: ذكر الْحَافِظُ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ في «السير» (١٢/ ٤٠٤ - ترجمة محمد بن إسماعيل البخاري) عن مُحَمَّدَ بنِ يُوْسُفَ

البُخَارِيِّ قَالَ: كُنْتُ مَعَ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ رَحِمَهُ اللهُ بِمَنْزِلِهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَأَحصيتُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَامَ وَأَسْرَجَ يَسْتَذكرُ أَشْيَاءَ يُعَلِّقُهَا فِي لَيْلَةٍ ثَمَانِ عَشْرَةَ مرَّة.

السلف باعوا متاعهم، وأنفقوا أموالهم في طلب العلم

لما كان العلم عند السلف مكانته فوق كل أمتعة الدنيا باعوا الغالي والثمين، وأنفقوا الأموال من أجله. وكما قيل:

مَنْ لم يَرَ العلْمَ أغلى من كلِّ شيءٍ يُصابُ فليس يُفلحُ حتى يُحثى عليه الترابُ!

وها هو طرفٌ مِن أخبار القوم:

الأول: الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رَحِمَهُ اللهُ.

ذكر القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ « ترتيب المدارك» (١/ ١٣١) عن ابن القاسم رَحِمَهُ اللهُ قال: أفضى بمالك طلب العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه.

وَمَنْ يَصْطَبِرْ لِلْعِلْمِ يَظْفَرْ بِنَيْلِهِ وَمَنْ يَخْطُبُ الحَسْنَاءَ يَصْبِر عَلَى البَذْلِ

وَمَنْ لَا يُذِلُّ النَّفْسَ في طَلَبِ العُلَى يَسِيرًا يَعَشْ دَهْرًا طَوِيلاً أَخَا ذُلِ

الثاني: إمام الأئمة في الجرح والتعديل يحي بن معين البغدادي، شيخ البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث رَحِمَهُ اللهُ.

ذكر الْحَافِظُ النووي رَحِمَهُ اللهُ في «تهذيب اللغات» (٢/ ١٥٧) عن على بن المديني رَحِمَهُ اللهُ قال: ما أعلم أحدًا كتب من الحديث ما كتب يحيى بن معين، وخلف والده معين ليحيى ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم أنفقها كلها في الحديث، حتى لم يبق له نعل يلبسها.

ولقد أَحْسَنَ القَائِلُ:

إِنَّ للهِ عِبَاداً فُطَنَا ... طَلَّقُوا الدُّنْيَا وخَافُوا الفِتَنَا

نَظَرُوا فيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا ... أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا

جَعَلُوها لُجَّةً واتَّخَذُوا ... صَالِحَ الأعمال فيها سفنا

الثالث: الإمام أبو عبد الله عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ القَاسِمِ العُتَقِيُّ، المصري، المتقدم ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال ابن وضاح رَحِمَهُ اللَّهُ في «ترتيب المدارك» (٣/ ٢٤٨): سمع ابن القاسم من الشاميين والمصريين، وإنما طلب وهو كبير، ولم يخرج لمالك حتى سمع من المصريين. وأنفق في سفرته إلى مالك ألف مثقال.

الرابع: الإمام الْحَافِظُ علي بن عاصم الواسطي رَحِمَهُ اللَّهُ.

ذكر الْحَافِظُ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير» (٩/ ٢٥٢) عن أَحْمَدَ بنِ أَعْيَنَ قال سَمِعْتُ عَلِيَّ ابنَ عَاصِمٍ يَقُوْلُ: دَفَعَ إِلَيَّ أَبِي مائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَقَالَ: اذْهَبْ، فَلاَ أَرَى لَكَ وَجْهاً إِلَّا بِمائَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ.

الخامس: الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بنُ سَلَامٍ الْبِيْكَنْدِيُّ (شيخ البخاري) رَحِمَهُ اللَّهُ.

ذكر الْحَافِظُ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير» (١٠/ ٦٣٠) عن سَهْلِ بنِ المُتَوَكِّلِ قال: سَمِعْتُ مُحَمَّداً يَقُوْلُ: أَنْفَقْتُ فِي طَلَبِ العِلْمِ أَرْبَعِيْنَ أَلفاً، وَأَنْفَقْتُ فِي نَشْرِهِ أَرْبَعِيْنَ أَلفاً، وَلَيْتَ مَا أَنْفَقْتُ فِي طَلَبِهِ كَانَ فِي نَشْرِهِ - أَوْ كَمَا قَالَ-.

السادس: الإمام أبو عبد الله مُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى الذُّهْلِيُّ (شيخُ البخاري) رَحِمَهُ اللَّهُ.

ذكر الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في تذكرة الحفاظ (٢/ ٨٧) عن الحُسَيْنِ بنِ الحَسَنِ بنِ سُفْيَانَ قال: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ يَحْيَى الذُّهْلِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُوْلُ: ارتحلْتُ ثَلاَثَ رحلاَتٍ، وَأَنْفَقْتُ عَلَى العِلْمِ مائَةً وَخَمْسِيْنَ أَلْفاً، وَلَمَّا دَخَلْتُ البَصْرَةَ اسْتَقبلتَنِي جِنَازَةُ يَحْيَى القَطَّانِ عَلَى بَابِ البَصْرَةِ.

شدة فقرهم لم تمنعهم من طلب العلم

لقد وقع لعلماء السلف من الجوع وضيق العيش الشيءُ الكثير؛ وذلك لاشتغالهم بالعلم وتحصيله، ومن ذلك:

الأول: الصحابي الجليل راوية الإسلام، أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أخرج الشيخان، واللفظ للبخاري عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ، وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّكُمْ تَقُولُونَ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: مَا بَالُ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ لَا يُحَدِّثُونَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؟، وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنَ المُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ صَفْقٌ بِالأَسْوَاقِ، وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي، فَأَشْهَدُ إِذَا غَابُوا، وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا، وَكَانَ يَشْغَلُ إِخْوَتِي مِنَ الْأَنْصَارِ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ امْرَأً مِسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّفَّةِ، أَعِي حِينَ يَنْسَوْنَ، وَقَدْ قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ

فِي حَدِيثٍ يُحَدِّثُهُ: «إِنَّهُ لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ، ثُمَّ يَجْمَعَ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ، إِلَّا وَعَى مَا أَقُولُ»، فَبَسَطْتُ نَمِرَةً عَلَيَّ، حَتَّى إِذَا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي، فَمَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تِلْكَ مِنْ شَيْءٍ.

وَأخرج أبو نعيم في «الحلية» عَنْ يَزِيدَ بْنِ زِيَادٍ الْقُرَظِيِّ، أَنَّ ثَعْلَبَةَ بْنَ أَبِي مَالِكٍ الْقُرَظِيَّ، حَدَّثَهُ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقْبَلَ فِي السُّوقِ يَحْمِلُ حُزْمَةَ حَطَبٍ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ خَلِيفَةٌ لِمَرْوَانَ، فَقَالَ: أَوْسِعِ الطَّرِيقَ لِلْأَمِيرِ يَا ابْنَ أَبِي مَالِكٍ، فَقُلْتُ لَهُ: يَكْفِي هَذَا، فَقَالَ: أَوْسِعِ الطَّرِيقَ لِلْأَمِيرِ، وَالْحُزْمَةُ عَلَيْهِ.

الثاني: الإمام الْحَافِظُ الثقة الرباني، أبو الحسين زيد بن الحباب الخراساني ثم الكوفي رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال الْحَافِظُ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير»: قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: صَاحِبُ حَدِيْثٍ كَيِّسٍ، قَدْ رَحَلَ إِلَى مِصْرَ وَخُرَاسَان فِي الحَدِيْثِ، مَا كَانَ أَصبرَهُ عَلَى الفَقْرِ! كَتَبْتُ عَنْهُ بِالكُوْفَةِ، وَهَا هُنَا.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير» أيضًا: وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بنِ حَرْبٍ الطَّائِيِّ، قَالَ: أَتَيْنَا زَيْدَ بنَ الحُبَابِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ ثَوْبٌ يَخْرُجُ فِيْهِ إِلَيْنَا، فَجَعَلَ البَابَ بَيْنَنَا

وَبَيْنَهُ حَاجِزاً، وَحَدَّثَنَا مِنْ وَرَائِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

الثالث: إمام أهل السنة، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال الْحَافِظُ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير»: قال الخَلَّالُ: حَدَّثَنَا الرَّمَادِيُّ، سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّزَّاقِ، وَذَكَرَ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ، فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ نَفَقَتَه نَفَدَتْ، فَأَخَذتُ بِيَدِهِ، فَأَقَمتُه خَلْفَ البَابِ، وَمَا مَعَنَا أَحَدٌ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ لَا تَجتَمِعُ عِنْدَنَا الدَّنَانِيْرُ، إِذَا بِعْنَا الغلَّةَ، أَشغَلْنَاهَا فِي شَيْءٍ، وَقَدْ وَجَدتُ عِنْد النِّسَاءِ عَشْرَةَ دَنَانِيْرَ، فَخُذْهَا، وَأَرْجُو أَنْ لَا تُنْفِقَها حَتَّى يَتَهَيَّأَ شَيْءٌ.

فَقَالَ لِي: يَا أَبَا بَكْرٍ، لَوْ قَبِلْتُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا، قَبِلتُ مِنْكَ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير» أيضًا: قال ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بنُ سِنَانٍ،

قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ رَهنَ نَعْلَه عِنْد خَبَّازٍ بِاليَمَنِ، وَأَكرَى نَفْسَه مِنْ جَمَّالين عِنْدَ خُرُوْجِه، وَعَرَضَ عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّزَّاقِ دَرَاهِمَ صَالِحَةً، فَلَمْ يَقبلْهَا.

الرابع: أمير المؤمنين في الحديث، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: قال الْحَافِظُ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير»: قَالَ غُنْجَارٌ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيْمُ بنُ حمدٍ المُلاَحِمِيُّ، سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ صَابرِ بنِ كَاتِبٍ، سَمِعْتُ عُمَرَ بنَ حَفْصٍ الأَشْقَرُ قَالَ: كُنَّا مَعَ البُخَارِيِّ بِالبَصْرَةِ نكتبُ، فَفَقدنَاهُ أَيَّامًا، ثُمَّ وَجدنَاهُ فِي بَيْتٍ وَهُوَ عُرياَنٌ، وَقَدْ نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَجَمَعنَا لَهُ الدَّرَاهِمَ، وَكسونَاهُ.

الخامس: أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في «صيد الخاطر»: لقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل؛ لأجل ما أطلب وأرجو، كنت في زمن الصبا آخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى - في بغداد -، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة

شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم، فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثرة سماعي لحديث رسول الله ﷺ وأحواله وآدابه، وأحوال أصحابه وتابعيهم رضي الله عنهم.

ومع هذا الفقر الشديد كانوا في عزة نفسٍ شديدة، ولنأخذ مثالا واحدا على ذلك، والأمثلة كثيرة:

الْحَافِظُ القدوة، شيخ البخاري ومسلم وطبقتِهما، محمد بن رافع النيسابوري رحمه الله:

قال الْحَافِظُ الذهبي رحمه الله في «السير»: قَالَ زَكَرِيَّا بنُ دَلَّوَيْه: بَعَثَ طَاهِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ إِلَى ابْنِ رَافِعٍ بِخَمْسَةِ آلاَفِ دِرْهَمٍ مَعَ رَسُوْلٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ العَصرِ، وَهُوَ يَأْكُلُ الخُبزَ مَعَ الفُجْلِ.

فَوَضَعَ الكِيسَ، فَقَالَ: بَعَثَ الأَمِيْرُ إِلَيْكَ بِهَذَا المَالِ.

فَقَالَ: خُذْ خُذْ، لَا أَحتَاجُ إِلَيْهِ، فَإِنَّ الشَّمْسَ قَدْ بَلَغَتْ رَأْسَ الحِيْطَانِ ، إِنَّمَا تَغْرُبُ بَعْدَ سَاعَةٍ، وَقَدْ جَاوَزْتُ الثَّمَانِيْنَ، إِلَى مَتَى أَعِيشُ؟ فَردَّ .

قَالَ: فَدَخَلَ ابْنُهُ، وَقَالَ: يَا أَبَتِهِ، لَيْسَ لَنَا اللَّيْلَةَ خُبْزٌ.

قَالَ: فَبَعَثَ بِبَعْضِ أَصْحَابِهِ خَلْفَ الرَّسُوْلِ لِيَرُدَّ المَالَ إِلَى طَاهِرٍ فَزَعًا مِنِ ابْنِهِ أَنْ يَذْهَبَ خَلْفَهُ، فَيَأْخُذَ المَالَ.

وصايا لطالب العلم

النصيحة الأولى: الإخلاص لله في طلب العلم

اعْلَمْ أَخِي طَالِبَ الْعِلْمِ، وَفَّقَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ، أَنَّ هَذِهِ النَّصِيحَةَ وَغَيْرَهَا، لَا يَسْتَغْنِي عَنْهَا طَالِبٌ وَلَا عَالِمٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ مَا أَنْصَحُكَ وَنَفْسِي بِهِ، أَنْ نُخْلِصَ للهِ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ، وَأَخُصُّ مِنْهَا طَلَبَ الْعِلْمِ وَتَعْلِيمَهُ؛ لِعَظِيمِ فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ، وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ وَقَدْرِهِ إِذَا أَخْلَصَ الْعَبْدُ فِيهِ، وَعَظِيمِ خَطَرِهِ وَضَرَرِهِ إِذَا لَمْ يُخْلِصِ الْعَبْدُ فِيهِ لِرَبِّهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشُّورَى].

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ أَيْ: أَجْرَهَا وَثَوَابَهَا، فَآمَنَ بِهَا وَصَدَّقَ، وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا، ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ بِأَنْ نُضَاعِفَ عَمَلَهُ وَجَزَاءَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الْإِسْرَاء]، وَمَعَ ذَلِكَ، فَنَصِيبُهُ مِنَ الدُّنْيَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَهُ، ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ بِأَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هِيَ مَقْصُودَهُ وَغَايَةَ مَطْلُوبِهِ، فَلَمْ يُقَدِّمْ لِآخِرَتِهِ، وَلَا رَجَا ثَوَابَهَا، وَلَمْ يَخْشَ عِقَابَهَا، ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ نَصِيبَهُ الَّذِي قُسِمَ لَهُ، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ قَدْ حُرِمَ الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا، وَاسْتَحَقَّ النَّارَ وَجَحِيمَهَا، وَهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هُود] إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ[1].

وَقَالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزُّمَر].

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ المَالِكِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَهَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ النِّيَّةِ فِي كُلِّ عَمَلٍ[2].

وَأَمَرَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا نَبِيَّهُ ﷺ بِهِ فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزُّمَر]، وَقَالَ فِي عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ..... ﴿٥﴾﴾ [الْبَيِّنَة].

وَقَدْ صَدَّرَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابَهُ الصَّحِيحَ بِحَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»**[3].

قَالَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: صَدَّرَ أَبُو عَبْدِ اللهِ كِتَابَهُ بِحَدِيثِ النِّيَّةِ، وَافْتَتَحَ كَلَامَهُ بِهِ، وَهُوَ حَدِيثٌ كَانَ

---

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَّانِ» (ص: ٧٥٧).

(٢) «أَحْكَامُ الْقُرْآنِ» (٤/ ٧٦).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ «بَابُ كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ؟»، وَمُسْلِمٌ «بَابُ قَوْلِهِ ﷺ: إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ» (١٩٠٧).

الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ شُيُوخِنَا .... يَسْتَحِبُّونَ تَقْدِيمَهُ أَمَامَ كُلِّ شَيْءٍ يُنْشَأُ وَيُبْتَدَأُ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، لِعُمُومِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِهَا، وَدُخُولِهِ فِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهَا [١].

قَالَ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عِظَمِ مَوْقِعِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَكَثْرَةِ فَوَائِدِهِ، وَصِحَّتِهِ. قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ وَآخَرُونَ: هُوَ ثُلُثُ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ: يَدْخُلُ فِي سَبْعِينَ بَابًا مِنَ الْفِقْهِ، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ رُبْعُ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ وَغَيْرُهُ: يَنْبَغِي لِمَنْ صَنَّفَ كِتَابًا، أَنْ يَبْدَأَ فِيهِ بِهَذَا الْحَدِيثِ؛ تَنْبِيهًا لِلطَّالِبِ عَلَى تَصْحِيحِ النِّيَّةِ [٢].

فَالْإِخْلَاصُ للهِ هُوَ رُوحُ الْعَمَلِ، وَأَسَاسُهُ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» [٣].

قَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْعِلْمُ عِبَادَةٌ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَقُرْبَةٌ مِنَ الْقُرَبِ، فَإِنْ خَلُصَتْ فِيهِ النِّيَّةُ قُبِلَ وَزَكَى، وَنَمَتْ بَرَكَتُهُ، وَإِنْ قُصِدَ بِهِ غَيْرُ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى حَبِطَ وَضَاعَ، وَخَسِرَتْ صَفْقَتُهُ، وَرُبَّمَا تَفُوتُهُ تِلْكَ الْمَقَاصِدُ وَلَا يَنَالُهَا؛ فَيَخِيبَ قَصْدُهُ وَيَضِيعَ سَعْيُهُ [٤].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» يَعْنِي: رِيحَهَا [٥].

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ بَرْجَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ أَحَقَّ مَا اعْتَنَى طَالِبُ الْعِلْمِ بِهِ مُعَالَجَةُ النِّيَّةِ،

---

(١) «شَرْحُ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (١/ ١٠٧).

(٢) «الْمِنْهَاجُ شَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمِ بْنِ الْحَجَاجِ» (١٣/ ٥٣).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ «بَابُ مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيْرَ اللهِ، وَفِي نُسْخَةٍ: بَابُ تَحْرِيمِ الرِّيَاءِ» (٢٩٨٥).

(٤) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص:١٦٩)

(٥) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ «بَابٌ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لِغَيْرِ اللهِ» (٣٦٦٤)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَتَعَهُّدُهَا بِالْإِصْلَاحِ، وَحِمَايَتُهَا مِنَ الْفَسَادِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا اكْتَسَبَ الْفَضْلَ لِكَوْنِهِ خَالِصًا لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى.

أَمَّا إِذَا كَانَ لِغَيْرِهِ فَلَا فَضِيلَةَ فِيهِ، بَلْ هُوَ فِتْنَةٌ وَوَبَالٌ وَسُوءُ عَاقِبَةٍ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ قَبُولَ الْأَعْمَالِ مُتَوَقِّفٌ عَلَى إِخْلَاصِهَا وَصَلَاحِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ**﴾ الْآيَةَ [**الْبَيِّنَةُ:٥**].

فَإِذَا قَصَدَ الطَّالِبُ بِالْعِلْمِ عَرَضَ الدُّنْيَا؛ فَقَدْ عَصَى رَبَّهُ، وَأَتْعَبَ نَفْسَهُ، وَبَاءَ بِإِثْمِهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ[1].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ**»[2].

قَالَ الْقَاضِي أَبُوبَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: وَقَدْ يَكُونُ الْعِلْمُ هَلَاكًا عَلَى صَاحِبِهِ، إِذَا طَلَبَهُ لِغَيْرِ وَجْهِ اللهِ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، **ثُمَّ قَالَ: وَالْمَعْنَى فِيهِ**: أَنَّ النِّيَّةَ هِيَ رُكْنُ الْعَمَلِ، أَوْ شَرْطُهُ الَّذِي لَا يُعْتَدُّ بِهِ إِلَّا بِهَا، فَإِذَا عُدِمَتْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا، فَإِذَا أُفْسِدَتْ فَسَدَ الْهَوَى (لَعَلَّهُ أَرَادَ: فَسَدَ الْمَقْصُودُ عِلْمًا كَانَ أَوْ عَمَلًا)، وَيَكُونُ فَسَادُهُ عَلَى قَدْرِ مُفْسِدِهِ، فَإِنْ أَرَادَ مُجَارَاةَ الْعُلَمَاءِ دَخَلَ فِي بَابِ الْحَسَدِ لِلظُّهُورِ وَالْمُبَاهَاةِ عَلَى الْأَقْرَانِ؛ فَقَلَبَ مَا لِلْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، وَإِنْ أَرَادَ مُمَارَاةَ السُّفَهَاءِ فَهُوَ مِثْلُهُمْ، وَإِنْ أَرَادَ صَرْفَ وُجُوهِ النَّاسِ لِيَكْتَسِبَ الْحُطَامَ؛ فَقَدْ بَاعَ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا، فَهُوَ عَاصٍ فَاسِقٌ، تَحْتَ رَجَاءِ الْخَاتِمَةِ فِي الْمَوْتِ عَلَى الشَّهَادَةِ؛ فَيَكُونَ فِي الْمَشِيئَةِ، أَوْ فِي تَزَعْزُعِ

---

(١) «عَوَائِقُ الطَّلَبِ» (ص: ١٠).

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ «بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ يَطْلُبُ بِعِلْمِهِ الدُّنْيَا» (٢٦٥٤)، وحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ.

الْعَقِيدَةِ يُضْعِفُهَا عِنْدَ الْمَوْتِ وَقُوَّةِ الْفِتْنَةِ أَوْ ذَهَابِهَا؛ فَيَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ[١].

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يُنَصِّبَ نَفْسَهُ - يَعْنِي لِلْفَتْوَى - حَتَّى يَكُونَ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ:

أَمَّا أُولَاهَا: فَأَنْ يَكُونَ لَهُ نِيَّةٌ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ نِيَّةٌ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ نُورٌ، وَلَا عَلَى كَلَامِهِ نُورٌ[٢].

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَأَمَّا النِّيَّةُ فَهِيَ رَأْسُ الْأَمْرِ وَعَمُودُهُ وَأَسَاسُهُ وَأَصْلُهُ الَّذِي عَلَيْهِ يُبْنَى؛ فَإِنَّهَا رُوحُ الْعَمَلِ وَقَائِدُهُ وَسَائِقُهُ، وَالْعَمَلُ تَابِعٌ لَهَا يُبْنَى عَلَيْهَا، يَصِحُّ بِصِحَّتِهَا وَيَفْسُدُ بِفَسَادِهَا، وَبِهَا يُسْتَجْلَبُ التَّوْفِيقُ، وَبِعَدَمِهَا يَحْصُلُ الْخِذْلَانُ، وَبِحَسَبِهَا تَتَفَاوَتُ الدَّرَجَاتُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَكَمْ بَيْنَ مُرِيدٍ بِالْفَتْوَى وَجْهَ اللهِ وَرِضَاهُ وَالْقُرْبَ مِنْهُ وَمَا عِنْدَهُ، وَمُرِيدٍ بِهَا وَجْهَ الْمَخْلُوقِ وَرَجَاءَ مَنْفَعَتِهِ وَمَا يَنَالُهُ مِنْهُ تَخْوِيفًا أَوْ طَمَعًا، **فَيُفْتِي الرَّجُلَانِ بِالْفَتْوَى الْوَاحِدَةِ وَبَيْنَهُمَا فِي الْفَضْلِ وَالثَّوَابِ أَعْظَمُ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، هَذَا يُفْتِي لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَدِينُهُ هُوَ الظَّاهِرَ، وَرَسُولُهُ هُوَ الْمُطَاعَ، وَهَذَا يُفْتِي لِيَكُونَ قَوْلُهُ هُوَ الْمَسْمُوعَ، وَهُوَ الْمُشَارَ إِلَيْهِ، وَجَاهُهُ هُوَ الْقَائِمَ، سَوَاءٌ وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، أَوْ خَالَفَهُمَا، فَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.**

وَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ اللهِ الَّتِي لَا تُبَدَّلُ، وَسُنَّتُهُ الَّتِي لَا تُحَوَّلُ أَنْ يُلْبِسَ الْمُخْلِصَ مِنَ الْمَهَابَةِ وَالنُّورِ وَالْمَحَبَّةِ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ وَإِقْبَالِ قُلُوبِهِمْ إِلَيْهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ إِخْلَاصِهِ وَنِيَّتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ لِرَبِّهِ، وَيُلْبِسَ الْمُرَائِيَ اللَّابِسَ ثَوْبَيِ الزُّورِ مِنَ الْمَقْتِ وَالْمَهَانَةِ وَالْبِغْضَةِ مَا هُوَ اللَّائِقُ بِهِ، فَالْمُخْلِصُ لَهُ الْمَهَابَةُ وَالْمَحَبَّةُ، وَلِلْآخَرِ الْمَقْتُ وَالْبَغْضَاءُ[٣].

---

(١) «عَارِضَةُ الْأَحْوَذِيِّ بِشَرْحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (١٠/ ١٢١).

(٢) «إِبْطَالُ الْحِيَلِ» (ص:٢٤) لِابْنِ بَطَّةَ الْعُكْبَرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) «إِعْلَامُ الْمُوَقِّعِينْ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (٦/ ١٠٦).

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: نَظَرْتُ فِي الْأَدِلَّةِ عَلَى الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَوَجَدْتُهَا أَكْثَرَ مِنَ الرَّمْلِ، وَرَأَيْتُ مِنْ أَعْجَبِهَا أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُخْفِي مَا لَا يَرْضَاهُ اللهُ ﷻ، فَيُظْهِرُهُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ، وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، وَيُنْطِقُ الْأَلْسِنَةَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يُشَاهِدْهُ النَّاسُ، وَرُبَّمَا أَوْقَعَ صَاحِبَهُ فِي آفَةٍ يَفْضَحُهُ بِهَا بَيْنَ الْخَلْقِ، فَيَكُونَ جَوَابًا لِكُلِّ مَا أَخْفَى مِنَ الذُّنُوبِ، وَذَلِكَ لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ هُنَالِكَ مَنْ يُجَازِي عَلَى الزَّلَلِ، وَلَا يَنْفَعُ مِنْ قَدَرِهِ وَقُدْرَتِهِ حِجَابٌ وَلَا اسْتِتَارٌ، وَلَا يُضَاعُ لَدَيْهِ عَمَلٌ، وَكَذَلِكَ يُخْفِي الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ، فَتَظْهَرَ عَلَيْهِ، وَيَتَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَا وَبِأَكْثَرَ مِنْهَا، حَتَّى إِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ لَهُ ذَنْبًا، وَلَا يَذْكُرُونَهُ إِلَّا بِالْمَحَاسِنِ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ هُنَالِكَ رَبًّا لَا يُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ.

وَإِنَّ قُلُوبَ النَّاسِ لَتَعْرِفُ حَالَ الشَّخْصِ، وَتُحِبُّهُ أَوْ تَأْبَاهُ، وَتَذُمُّهُ أَوْ تَمْدَحُهُ وَفْقَ مَا يَتَحَقَّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ يَكْفِيهِ كُلَّ هَمٍّ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ كُلَّ شَرٍّ، وَمَا أَصْلَحَ عَبْدٌ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ دُونَ الْحَقِّ؛ إِلَّا انْعَكَسَ مَقْصُودُهُ، وَعَادَ حَامِدُهُ ذَامًّا[1].

السَّلَفُ الصَّالِحُ وَالْإِخْلَاصُ.

وَانْظُرْ وَتَأَمَّلْ -رَعَاكَ اللهُ- فِي أَحْوَالِ أَسْلَافِكَ السَّابِقِينَ، تَعْرِفْ سِرَّ الْفَارِقِ بَيْنَ الْمَاضِي وَازْدِهَارِهِ وَالْحَاضِرِ وَتَأَخُّرِهِ، وَلِمَاذَا كَانَ كَلَامُهُمْ كَثِيرَ الْبَرَكَةِ مَعَ قِلَّتِهِ، وَكَلَامُنَا قَلِيلَ الْبَرَكَةِ مَعَ كَثْرَتِهِ؟! وَإِنَّمَا تَفَاوَتَ النَّاسُ بِحَقَائِقِ الْأَعْمَالِ لَا بِصُوَرِهَا.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُبَارَكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ **قَالَ**: قِيلَ لِحَمْدُونَ بْنِ أَحْمَدَ: مَا بَالُ كَلَامِ السَّلَفِ أَنْفَعُ مِنْ كَلَامِنَا؟ قَالَ: **لِأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا لِعِزِّ الْإِسْلَامِ، وَنَجَاةِ النُّفُوسِ، وَرِضَا الرَّحْمَنِ، وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ لِعِزِّ النُّفُوسِ، وَطَلَبِ الدُّنْيَا، وَرِضَا الْخَلْقِ**[2].

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الْعَمَلَ الْحَسَنَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، أَوِ الْعَمَلَ لَا**

---

(١) «صَيْدُ الْخَاطِرِ» (ص:٦٧،٦٨).

(٢) «صِفَةُ الصَّفْوَةِ» (ص: ٧٦٢).

يُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللهِ؛ فَيَقَعَ لَهُ الْمَقْتُ وَالْعَيْبُ عِنْدَ النَّاسِ حَتَّى يَكُونَ عَيْبًا، وَإِنَّهُ لَيَعْمَلُ الْعَمَلَ أَوِ الْأَمْرَ يَكْرَهُهُ النَّاسُ يُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللهِ؛ فَيَقَعَ لَهُ الْمِقَةُ (يَعْنِي: الْحُبَّ)، **وَالْحُسْنُ عِنْدَ النَّاسِ**[١].

وَعَنْ زُبَيْدٍ الْيَامِيِّ رَحِمَهُ اللهُ **قَالَ: مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ أَفْضَلَ مِنْ عَلَانِيَتِهِ فَذَلِكَ الْفَضْلُ، وَمَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ مِثْلَ عَلَانِيَتِهِ فَذَلِكَ النِّصْفُ، وَمَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ دُونَ عَلَانِيَتِهِ فَذَلِكَ الْجَوْرُ**[٢].

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: **مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي**[٣].

وَفِي تَرْجَمَةِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْعَلَّامَةِ الْحَافِظُ شَيْخِ الْحَرَمِ رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ: **سَأَلْتُ الْأَوْزَاعِيَّ، وَسَعِيدَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَابْنَ جُرَيْجٍ: لِمَنْ طَلَبْتُمُ الْعِلْمَ؟ كُلُّهُمْ يَقُولُ: لِنَفْسِي، غَيْرَ أَنَّ ابْنَ جُرَيْجٍ، فَإِنَّهُ قَالَ: طَلَبْتُهُ لِلنَّاسِ.**

قَالَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ **مُعَلِّقًا:** مَا أَحْسَنَ الصِّدْقَ، وَالْيَوْمَ تَسْأَلُ الْفَقِيهَ الْغَبِيَّ: لِمَنْ طَلَبْتَ الْعِلْمَ؟ فَيُبَادِرُ، وَيَقُولُ: طَلَبْتُهُ للهِ، وَيَكْذِبُ، إِنَّمَا طَلَبَهُ لِلدُّنْيَا، وَيَا قِلَّةَ مَا عَرَفَ مِنْهُ[٤].

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ[٥]:

أَشَدُّ النَّاسِ لِلْعِلْمِ ادِّعَاءً . أَقَلُّهُمُ لِمَا هُوَ فِيهِ عِلْمَا

أَرَى الْإِنْسَانَ مَنْقُوصًا ضَعِيفًا وَمَا يَأْلُو لِعِلْمِ الْغَيْبِ رَجْمَا

وَفِي الصَّمْتِ الْمُبَلِّغِ عَنْكَ حُكْمٌ كَمَا أَنَّ الْكَلَامَ يَكُونُ حُكْمَا

إِذَا لَمْ تَحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ طَيْشٍ أَسَأْتَ إِجَابَةً وَأَسَأْتَ فَهْمَا

---

(١) «الْإِخْلَاصُ وَالنِّيَّةُ» لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا رَحِمَهُ اللهُ (ص:٤٠).

(٢) «الْإِخْلَاصُ وَالنِّيَّةُ» (ص:٥٣).

(٣) «جَامِعُ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ» لِابْنِ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيِّ رَحِمَهُ اللهُ (ص:١٨).

(٤) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» (٦/ ٣٢٨).

(٥) «دِيوَانُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ» (ص: ٤٠٢).

تَنْبِيهٌ مُهِمٌّ: لَيْسَ مِنَ الْإِخْلَاصِ تَرْكُ طَلَبِ الْعِلْمِ وَتَعْلِيمِهِ لِعَدَمِ خُلُوصِ النِّيَّةِ فِيهِ.

وَانْتَبِهْ أَخِي طَالِبَ الْعِلْمِ فَإِنَّ تَرْكَ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ، وَتَرْكَ طَلَبِهِ لِعَدَمِ خُلُوصِ النِّيَّةِ فِيهِ لَيْسَ مِنَ الْإِخْلَاصِ فِي شَيْءٍ، بَلْ هُوَ مِنْ مَدَاخِلِ وَمَكَايِدِ الشَّيْطَانِ؛ لِيَمْنَعَكَ مِنَ فَضْلِ التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ الْمُوصِلِ إِلَى الْإِخْلَاصِ.

وَقَدْ عَلَقَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **عَلَى قَوْلِ مَعْمَرٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانَ يُقَالُ: «**إِنَّ الرَّجُلَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللهِ، فَيَأْبَى عَلَيْهِ الْعِلْمُ حَتَّى يَكُونَ للهِ**» **قَائِلًا**: نَعَمْ، يَطْلُبُهُ أَوَّلًا وَالْحَامِلُ لَهُ حُبُّ الْعِلْمِ، وَحُبُّ إِزَالَةِ الْجَهْلِ عَنْهُ، وَحُبُّ الوَظَائِفِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ عَلِمَ وُجُوبَ الْإِخْلَاصِ فِيهِ، وَلَا صِدْقَ النِّيَّةِ، فَإِذَا عَلِمَ حَاسَبَ نَفْسَهُ، وَخَافَ مِنْ وَبَالِ قَصْدِهِ، فَتَجِيئُهُ النِّيَّةُ الصَّالِحَةُ كُلُّهَا، أَوْ بَعْضُهَا، وَقَدْ يَتُوبُ مِنْ نِيَّتِهِ الفَاسِدَةِ وَيَنْدَمُ.

وَعَلَامَةُ ذَلِكَ: أَنَّهُ يُقْصِرُ مِنَ الدَّعَاوَى وَحُبِّ الْمُنَاظَرَةِ، وَمِنْ قَصْدِ التَّكَثُّرِ بِعِلْمِهِ، وَيُزْرِي عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنْ تَكَثَّرَ بِعِلْمِهِ، أَوْ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ مِنْ فُلَانٍ، فَبُعْدًا لَهُ[1].

قَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنْ لَا يَمْتَنِعَ (يَعْنِي: الشَّيْخَ) مِنْ تَعْلِيمِ الطَّالِبِ لِعَدَمِ خُلُوصِ نِيَّتِهِ، فَإِنَّ حُسْنَ النِّيَّةِ مَرْجُوٌّ لَهُ بِبَرَكَةِ الْعِلْمِ ... وَلِأَنَّ إِخْلَاصَ النِّيَّةِ لَوْ شُرِطَ فِي تَعْلِيمِ الْمُبْتَدِئِينَ فِيهِ مَعَ عُسْرِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ؛ لَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى تَفْوِيتِ الْعِلْمِ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ[2].

فَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ تَحَقُّقِ الْإِخْلَاصِ الْمُوَاظَبَةُ عَلَى الْعِلْمِ، وَالْجِدُّ فِي تَحْصِيلِهِ.

وَيُحَصَّلُ الْإِخْلَاصُ بِالتَّعَلُّمِ عَلَى يَدِ الْعُلَمَاءِ الرَّبَانِيِّينَ مِمَّنْ عُرِفُوا بِالْإِنْصَافِ وَالْعَدْلِ، وَالْقَبُولِ وَالضَّبْطِ، وَالدِرَايَةِ وَالْحِفْظِ، وَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ، مِمَّنْ تَرَبَّوا فِي الْعِلْمِ وَشابَتْ لِحَاهُمْ فِيهِ، وَعُرِفُوا بِالدِّرْبَةِ وَكَثْرَةِ التَّجَارُبِ والْخِبْرَةِ.

---

(١) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» (٧/ ١٧).

(٢) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص:١٣٨).

قَالَ الْفَضْلُ بْنُ زِيَادٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: **سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ - يَعْنِي الْإِمَامَ أَحْمَدَ** رَحِمَهُ اللَّهُ - **عَنِ النِّيَّةِ فِي الْعَمَلِ، قُلْتُ كَيْفَ النِّيَّةُ؟ قَالَ: يُعَالِجُ نَفْسَهُ، إِذَا أَرَادَ عَمَلًا لَا يُرِيدُ بِهِ النَّاسَ**(١).

وَقَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: حُسْنُ النِّيَّةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ بِأَنْ يَقْصِدَ بِهِ وَجْهَ اللهِ تَعَالَى، وَالْعَمَلَ بِهِ، وَإِحْيَاءَ الشَّرِيعَةِ، وَتَنْوِيرَ قَلْبِهِ، وَتَحْلِيَةَ بَاطِنِهِ، وَالْقُرْبَ مِنَ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالتَّعَرُّضَ لِمَا أَعَدَّ لِأَهْلِهِ مِنْ رِضْوَانِهِ وَعَظِيمِ فَضْلِهِ...

ثُمَّ قَالَ: وَلَا يَقْصِدُ بِهِ الْأَغْرَاضَ الدُّنْيَوِيَّةَ، مِنْ تَحْصِيلِ الرِّيَاسَةِ وَالْجَاهِ وَالْمَالِ، وَمُبَاهَاةِ الْأَقْرَانِ، وَتَعْظِيمِ النَّاسِ لَهُ، وَتَصْدِيرِهِ فِي الْمَجَالِسِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَيَسْتَبْدِلَ الْأَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ(٢).

الْعَالِمُ الرَّبَّانِيُّ الْمَاهِرُ، يُرَبِّيكَ عَلَى الْإِخْلَاصِ، وَيُحَرِّضُكَ عَلَيْهِ قَوْلًا وَفِعْلًا:

قَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَكِنَّ الشَّيْخَ يُحَرِّضُ الْمُبْتَدِئَ عَلَى حُسْنِ النِّيَّةِ بِتَدْرِيجٍ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَيُعَلِّمُهُ بَعْدَ أُنْسِهِ بِهِ: أَنَّهُ بِبَرَكَةِ حُسْنِ النِّيَّةِ يَنَالُ الرُّتْبَةَ الْعَلِيَّةَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَفَيْضَ اللَّطَائِفِ، وَأَنْوَاعَ الْحِكَمِ، وَتَنْوِيرَ الْقَلْبِ، وَانْشِرَاحَ الصَّدْرِ، وَتَوْفِيقَ الْعَزْمِ، وَإِصَابَةَ الْحَقِّ، وَحُسْنَ الْحَالِ، وَالتَّسْدِيدَ فِي الْمَقَالِ، وَعُلُوَّ الدَّرَجَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(٣).

وَفِي الْحَقِيقَةِ هَذَا أَمْرٌ نَدُرَ وَجُودُهُ، وَقَلَّ أَهْلُهُ، وَعَزَّ طُلَّابُهُ، خَاصَّةً فِي أَزْمِنَةِ الْغُرْبَةِ، الَّتِي غَلَبَ فِيهَا الِاسْتِعْجَالُ وَالسُّرْعَةُ، وَالتَّصَدُّرُ قَبْلَ التَّأَهُّلِ وَالتَّحْصِيلِ وَالتَّحْقِيقِ، فَفُلَانٌ الْمُحَدِّثُ، وَآخَرُ عَلَّامَةُ عَصْرِهِ، وَأَوْحَدُ زَمَانِهِ، وَقِبْلَةُ الْعُلَمَاءِ وَالطُّلَّابِ، وَقَلَّ أَنْ تَجِدَ بَصِيرًا بِالْأُمُورِ خَبِيرًا بِهَا، مِنْ أَهْلِ الْفِرَاسَةِ الصَّادِقَةِ، وَالْمَنْهَجِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيُبَيِّنُ لَكَ ذَلِكَ تَتِمَّةُ مَا أَخْرَجَ ابْنُ بَطَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَدْ سَبَقَ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يُنَصِّبَ نَفْسَهُ - يَعْنِي لِلْفَتْوَى - حَتَّى يَكُونَ

---

(١) «جَامِعُ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ» (ص:١٤).

(٢) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص: ١٦٨،١٦٩).

(٣) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص: ١٣٨).

فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ:

أَمَّا أُولَاهَا: فَأَنْ يَكُونَ لَهُ نِيَّةٌ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ نِيَّةٌ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ نُورٌ وَلَا عَلَى كَلَامِهِ نُورٌ.

وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: فَيَكُونُ لَهُ خُلُقٌ وَوَقَارٌ وَسَكِينَةٌ.

وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَيَكُونُ قَوِيًّا عَلَى مَا هُوَ فِيهِ وَعَلَى مَعْرِفَتِهِ.

وَأَمَّا الرَّابِعَةُ: فَالْكِفَايَةُ، وَإِلَّا مَضَغَهُ النَّاسُ.

وَأَمَّا الْخَامِسَةُ: فَمَعْرِفَةُ النَّاسِ.

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ ابْنُ بَطَّةَ رَحِمَهُ اللهُ **مُعَلِّقًا**: فَأَقُولُ - وَاللهُ الْعَالِمُ -: لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَنْعَمَ نَظَرَهُ، وَمَيَّزَ فِكْرَهُ، وَسَمَا بِطَرْفِهِ، وَاسْتَقْصَى بِجَهْدِهِ، طَالِبًا خَصْلَةً وَاحِدَةً فِي أَحَدٍ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ وَالْمُتَصَدِّرِينَ لِلْفَتْوَى فِيهَا لَمَا وَجَدَهَا، بَلْ لَوْ أَرَادَ أَضْدَادَهَا وَالْمَكْرُوهَ وَالْمَرْذُولَ مِنْ سَجَايَا دَنَاءَةِ النَّاسِ وَأَفْعَالِهِمْ فِيهِمْ لَوَجَدَ ذَلِكَ مُتَكَاثِفًا مُتَضَاعِفًا. وَاللهَ نَسْأَلُ صَفْحًا جَمِيلًا، وَعَفْوًا كَثِيرًا [1].

قُلْتُ: هَذَا فِي زَمَانِ الْإِمَامِ ابْنِ بَطَّةَ رَحِمَهُ اللهُ **فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ، فَكَيْفَ لَوْ رَأَى زَمَانَنَا؟!**

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعَامِلَنَا بِفَضْلِهِ وَلُطْفِهِ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَنَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

النصيحة الثانية: اقترانُ العلمِ بالعمل.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

أخرج مسلم عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ».

---

(١) «إِبْطَالُ الْحِيَلِ» (ص:٢٤) لِابْنِ بَطَّةَ الْعُكْبَرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

وعَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: «إِنَّ لِلْعِلْمِ غَوَائِلَ فَمِنْ غَوَائِلِهِ أَنْ يُتْرَكَ الْعَالِمُ حَتَّى يُذْهَبَ بِعِلْمِهِ، وَمِنْ غَوَائِلِهِ النِّسْيَانُ وَمِنْ غَوَائِلِهِ الْكَذِبُ فِيهِ وَهُوَ شَرُّ غَوَائِلِهِ».

وعن الشعبي ووكيعٍ رحمهما الله قالا: «كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْحَدِيثِ بِالْعَمَلِ بِه».

وَقَالَ أَيُّوبُ السِّخْتِيَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ لِي أَبُو قِلَابَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَا أَيُّوبُ، إِذَا أَحْدَثَ اللهُ لَكَ عِلْمًا فَأَحْدِثْ لَهُ عِبَادَةً، وَلَا يَكُنْ هَمُّكَ أَنْ تُحَدِّثَ بِهِ».

وعَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ يَطْلُبُ الْعِلْمَ فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يُرَى ذَلِكَ فِي تَخَشُّعِهِ وَهَدْيِهِ وَلِسَانِهِ وَبَصَرِهِ وَيَدِهِ».

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ».

وقال المَرُّوْذِيُّ، قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللهِ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا كَتَبْتُ حَدِيْثاً إِلَّا وَقَدْ عَمِلتُ بِهِ، حَتَّى مَرَّ بِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ احتَجَمَ وَأَعطَى أَبَا طيبَةَ دِيْنَاراً، فَاحتجمْتُ وَأَعطيتُ الحجَّامَ دِيْنَاراً.

كل هذه الآثار ذكرها الْحَافِظُ أبو عمر ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ في «جامع بيان العلم وفضله».

النصيحة الثالثة: الحرص على تثبيت العلم، والتثبت فيه.

ومن وسائل التثبت فيه:

أ- حسن القصد:

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «إعلام الموقعين عن رب العالمين»: صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم على عبده، ما أُعطي عبدٌ عطاءً بعد الإسلام أفضلُ ولا أجلُّ منهما. بل هما ساقا الإسلام وقيامُه عليهما، وبهما يأمن العبد طريقَ المغضوب عليهم الذين فسَد مقصدُهم، وطريق

الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعَم عليهم الذين حسُنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذي أُمرنا أنْ نسأل الله أنْ يهدينا صراطهم في كل صلاة.

وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يُميز به بين الصحيح والفاسد والحق والباطل.

ب- التلقي على الشيوخ:

اعْلَمْ أَخِي طَالِبَ الْعِلْمِ أَنَّ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ مَطْلَبٌ شَرِيفٌ، وَقِمَّةٌ عَالِيَةٌ، لَا يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ طَرْقِ أَبْوَابِهَا، وَأَخْذِ النَّفْسِ بِالْجِدِّ فِي تَحْصِيلِهَا.

وَمِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْمُوصِلَةِ إِلَيْهَا أَنْ يَتَلَقَّى الطَّالِبُ الْعِلْمَ عَنِ الْأَشْيَاخِ مِنْ كِبَارِ أَهْلِهِ.

وَهُمْ أَهْلُ الْإِتْقَانِ وَالضَّبْطِ، مِمَّنْ رَسَخَتْ أَقْدَامُهُمْ وَشَابَتْ لِحَاهُمْ فِيهِ، مَنِ اكْتَسَبُوا الْأَخْلَاقَ الَّتِي قَوَّمَهَا الْعِلْمُ وَالزَّمَنُ والتَّجْرِبَةُ وَالْخِبْرَةُ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَدْ أَثْنَى اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤمِنِينَ الَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً يُهْتَدَى بِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى فِي صِفَاتِ عِبَادِهِ: ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ [الفرقان: ٧٤].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يُهْتَدَى بِنَا فِي الْخَيْرِ.

وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: يُقْتَدَى بِهُدَانَا.

وَقَالَ مَكْحُولٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَئِمَّةً فِي التَّقْوَى يَقْتَدِي بِنَا الْمُتَّقُونَ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: اجْعَلْنَا مُؤْتَمِّينَ بِالْمُتَّقِينَ مُقْتَدِينَ بِهِمْ.

وَأُشْكِلَ هَذَا التَّفْسِيرُ (يَعْنِي: مِنْ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ) عَلَى مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ فَهْمِ السَّلَفِ وَعُمْقِ عِلْمِهِمْ **وَقَالَ**: يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ عَلَى هَذَا القَوْلِ مِنْ بَابِ الْمَقْلُوبِ، عَلَى تَقْدِيرِ وَاجْعَلِ الْمُتَّقِينَ لَنَا أَئِمَّةً.

وَمَعَاذَ اللهِ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مَقْلُوبًا عَلَى وَجْهِهِ، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ فَهْمِ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللهُ؛ **فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ الرَّجُلُ إِمَامًا لِلْمُتَّقِينَ حَتَّى يَأْتَمَّ بِالْمُتَّقِينَ.**

فَنَبَّهَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي يَنَالُونَ بِهِ هَذَا الْمَطْلُوبِ، **وَهُوَ اقْتِدَاؤُهُمْ بِالسَّلَفِ الْمُتَّقِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ؛ فَيَجْعَلَهُمُ اللهُ أَئِمَّةً لِلْمُتَّقِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ.**

وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْفَهْمِ فِي الْقُرْآنِ وَأَلْطَفِهِ، لَيْسَ مِنْ بَابِ الْقَلْبِ فِي شَيْءٍ، **فَمَنِ ائْتَمَّ بِأَهْلِ السُّنَّةِ قَبْلَهُ ائْتَمَّ بِهِ مَنْ بَعْدَهُ وَمَنْ مَعَهُ**[1].

وَعَنْ أَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ (ت: ٢١٣هـ) رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «ضَرَبْنَا فِي طَلَبِ الْعِلمِ آبَاطَ الْإِبِلِ، وَاغْتَرَبْنَا فِي الْبُلْدَانِ، وَلَقِينَا الْعُلَمَاءَ، وَغَيْرُنَا إِنَّمَا طَلَبَ الْعِلْمَ خَلْفَ كَانُونِ أَبِيهِ [أَيْ: مَوْقِدَهُ]، وَوَرَاءَ مَنْسِجِ أُمِّهِ [أَيْ: حَيْثُ يُنْسَجُ]، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَلْحَقُوا بِنَا!»[2].

فَالتَّتَلْمُذُ عَلَى يَدِ كِبَارِ أَهْلِ الْعِلْمِ الْمُتَحَقِّقِينَ بِهِ مِنْ أَنْفَعِ الطُّرُقِ فِي تَحْصِيلِهِ، وَأَعْظَمِ أَسْبَابِ رُسُوخِكَ فِي الْعِلْمِ، وَوُصُولُكَ إِلى أَنْ تَكُونَ إِمَامًا فِيهِ مِثْلُهُمْ مَوْقُوفٌ عَلَيْهِ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ سَمِعَ مِنْكُمْ**»[3].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: فَامْتَثَلَ أَصْحَابُهُ أَمْرَهُ، وَنَقَلُوا أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ، وَنَوْمَهُ وَيَقَظَتَهُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّ مَنْ بَعْدَ الصَّحَابَةِ تَلَقَّوْا ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَبَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ فِي حِفْظِهِ وَتَبْلِيغِهِ، وَكَذَلِكَ مَنْ بَعْدَهُمْ إِلَّا أَنَّهُ دَخَلَ فِيمَنْ بَعْدَ الصَّحَابَةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ قَوْمٌ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُ أَهْلِيَّةُ ذَلِكَ وَتَبْلِيغُهُ؛ فَأَخْطَئُوا فِيمَا تَحَمَّلُوا وَنَقَلُوا، وَمِنْهُمْ مَنْ تَعَمَّدَ ذَلِكَ؛ فَدَخَلَتِ الْآفَةُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، فَأَقَامَ اللهُ طَائِفَةً كَثِيرَةً مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِلذَّبِ عَنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَتَكَلَّمُوا فِي الرُّوَاةِ عَلَى قَصْدِ النَّصِيحَةِ، وَلَمْ

---

(١) «رِسَالَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ إِلَى أَحَدِ إِخْوَانِهِ» (ص:١١).

(٢) «رِيَاضُ النُّفُوسِ» (١/ ٢٦٧) لِأَبِي بَكْرٍ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَالِكِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ «بَابُ فَضْلِ نَشْرِ الْعِلْمِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ.

يُعَدَّ ذَلِكَ مِنَ الْغِيبَةِ الْمَذْمُومَةِ، بَلْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَيْهِمْ وُجُوبَ كِفَايَـةٍ، ثُمَّ أَلَّفَ الْحُفَّاظُ فِي أَسْمَاءِ الْمَجْرُوحِينَ كُتُبًا كَثِيرَةً، كُلٌّ مِنْهُمْ عَلَى مَبْلَغِ عِلْمِهِ، وَمِقْدَارِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ [١].

فَهَذِهِ الطَّائِفَةُ كَمَا تَرَى هِيَ الَّتِي اتَّصَفَتْ بِالضَّبْطِ وَالْإِتْقَانِ، وَحُسْنِ الْفَهْمِ، وَسَلَامَةِ الْقَصْدِ، وَالِاجْتِهَادِ فِي الْعَمَلِ، وَمنْ خَبَرَ حَالَهُمْ وَنَظَرَ فِي سِيَرِهِمْ عَلِمَ تَحَرِّيهِمُ الْعَدْلَ وَالْإِنْصَافَ فِي الْقَوْلِ، وَأَنَّهُمُ الْمُدَافِعُونَ بِحَقٍّ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ، وَلَّا نَدَّعِي الْعِصْمَةَ لِأَحَدٍ فِيهِمْ، لَكِنَّهُمْ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى ضَلَالٍ أَبَدًا، وَيكْثُرُ صَوَابُهُمْ وَيَنْدُرُ خَطَؤُهُمْ.

قَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا رَأَيْتُ أَحداً قَطُّ يَقُولُ الْحَقَّ فِي الْمَشَايِخِ غَيْرَ يَحْيَى، وَغَيْرُهُ كَانَ يَتَحَامَلُ بِالْقَوْلِ.

فَقَالَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **مُعَلِّقًا**: هَذَا الْقَوْلُ مِنْ عَبْدِ اللهِ بنِ الرُّومِيِّ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَإِنَّمَا قَالَهُ بِاجْتِهَادِهِ.

وَنَحْنُ لاَ نَدَّعِي الْعِصْمَةَ فِي أَئِمَّةِ الْجَرْحِ وَالتَّعدِيلِ، لَكِنْ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ صَوَابًا، وَأَنْدَرُهُمْ خَطَأً، وَأَشَدُّهُم إِنصَافًا، وَأَبْعَدُهُمْ عَنِ التَّحَامُلِ، وَإِذَا اتَّفَقُوا عَلَى تَعدِيلٍ أَوْ جَرْحٍ فَتَمَسَّكْ بِهِ، وَاعضُضْ عَلَيْهِ بِنَاجِذَيْكَ، وَلاَ تَتَجَاوَزْهُ فَتَنْدَمَ، وَمَنْ شَذَّ مِنْهُم فَلاَ عِبْرَةَ بِهِ.

فَخَلِّ عَنْكَ الْعَنَاءَ، وَأَعْطِ الْقَوسَ بَارِيَهَا، **فَوَاللهِ لَوْلاَ الحُفَّاظُ الأَكَابِرُ لَخَطَبَتِ الزَّنَادِقَةُ عَلَى الْمَنَابِرِ**، وَلَئِنْ خَطَبَ خَاطِبٌ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ، فَإِنَّمَا هُوَ بِسَيفِ الإِسْلاَمِ، وَبِلِسَانِ الشَّرِيعَةِ، وَبِجَاهِ السُّنَّةِ، وَبِإِظهَارِ مُتَابَعَةِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الخِذْلاَنِ [٢].

وَيَأْخُذُ أَخِي طَالِبَ الْعِلْمِ بِيَدِكَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **حَتَى لَا تَتَعَثَّرَ خُطَاكَ فَيُبَيِّنُ بَيَانًا شَافِيًا يُوَضِّحُ لَكَ فِيهِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُتَعَلَّمَ عِلْمٌ وَلَا عَمَلٌ إِلَّا عَلَى أَهْلِهِ الْمُتْقِنِينَ فِيهِ فَيَقُولُ**: مِنْ أَنْفَعِ طُرُقِ الْعِلْمِ

---

(١) «لِسَانُ الْمِيزَانِ» (١/ ١٩١).

(٢) «سِيَـرُ أَعْـلَامِ النُّبَـلَاءِ» (١١/ ٨٢).

الْمُوصِلَةِ إِلَى غَـايَةِ التَّحَقُّـقِ بِهِ أَخْـذُهُ عَـنْ أَهْـلِهِ الْمُتَحَقِّقِينَ بِـهِ عَلَـى الْكَـمَالِ وَالتَّمَامِ...وَكَلَامُنَا مِنْ ذَلِكَ فِيمَا يَفْتَقِرُ إِلَى نَظَرٍ وَتَبَصُّرٍ، فَلَا بُدَّ مِنْ مُعَلِّمٍ فِيهَا، ...وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ مُقِرُّونَ بِافْتِقَارِ الْجَاهِلِ إِلَى الْمُعَلِّمِ، عِلْمًا كَانَ الْمُعَلَّمُ أَوْ عَمَلًا، وَاتِّفَاقُ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ فِي الْوُقُوعِ، وَجَرَيَانُ الْعَادَةِ بِهِ كافٍ فِي أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَقَدْ قَالُوا: **إِنَّ الْعِلْمَ كَانَ فِي صُدُورِ الرِّجَالِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْكُتُبِ، وَصَارَتْ مَفَاتِحُهُ بِأَيْدِي الرِّجَالِ**.

وَهَذَا الْكَلَامُ يَقْضِي بِأَنْ لَا بُدَّ فِي تَحْصِيلِهِ مِنَ الرِّجَالِ، إِذْ لَيْسَ وَرَاءَ هَاتَيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ مَرْمًى عِنْدَهُمْ، وَأَصْلُ هَذَا فِي الصَّحِيحِ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ**» الْحَدِيثَ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ فَالرِّجَالُ هُمْ مَفَاتِحُهُ بِلَا شَكٍّ.

فَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا؛ فَلَا يُؤْخَذُ إِلَّا مِمَّنْ تَحَقَّقَ بِهِ، وَهَذَا أَيْضًا وَاضِحٌ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ أَيْضًا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ؛ إِذْ مِنْ شُرُوطِهِمْ فِي الْعَالِمِ بِأَيِّ عِلْمٍ اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِأُصُولِهِ، وَمَا يَنْبَنِي عَلَيْهِ ذَلِكَ الْعِلْمُ، قَادِرًا عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ مَقْصُودِهِ فِيهِ، عَارِفًا بِمَا يَلْزَمُ عَنْهُ، قَائِمًا عَلَى دَفْعِ الشُّبَهِ الْوَارِدَةِ عَلَيْهِ فِيهِ، فَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى مَا اشْتَرَطُوهُ وَعَرَضْنَا أَئِمَّةَ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَجَدْنَاهُمْ قَدِ اتَّصَفُوا بِهَا عَلَى الْكَمَالِ.

غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ السَّلَامَةُ عَنِ الْخَطَأِ الْبَتَّةَ؛ لِأَنَّ فُرُوعَ كُلِّ عِلْمٍ إِذَا انْتَشَرَتْ وَانْبَنَى بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ اشْتَبَهَتْ، وَرُبَّمَا تُصُوِّرَ تَفْرِيعُهَا عَلَى أُصُولٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي الْعِلْمِ الْوَاحِدِ فَأَشْكَلَتْ، أَوْ خَفِيَ فِيهَا الرُّجُوعُ إِلَى بَعْضِ الْأُصُولِ فَأَهْمَلَهَا الْعَالِمُ مِنْ حَيْثُ خَفِيَتْ عَلَيْهِ وَهِيَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، أَوْ تَعَارَضَتْ وُجُوهُ الشَّبَهِ فَتَشَابَهَ الْأَمْرُ فَيَذْهَبُ عَلَى الْعَالِمِ الْأَرْجَحُ مِنْ وُجُوهِ التَّرْجِيحِ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ؛ فَلَا يَقْدَحُ فِي كَوْنِهِ عَالِمًا، وَلَا يَضُرُّ فِي كَوْنِهِ إِمَامًا مُقْتَدًى بِهِ.

فَإِنْ قَصَّرَ عَنِ اسْتِيفَاءِ الشُّرُوطِ نَقَصَ عَنْ رُتْبَةِ الْكَمَالِ بِمِقْدَارِ ذَلِكَ النُّقْصَانِ؛ فَلَا يَسْتَحِقُّ الرُّتْبَةَ الْكَمَالِيَّةَ مَا لَمْ يُكَمِّلْ مَا نَقَصَ.

ثُمَّ ذَكَرَ فَصْلًا بَيَّنَ فِيهِ بَاقِي الصِّفَاتِ وَالشُّرُوطِ فِيمَنْ يُؤْخَذُ الْعِلْمُ عَنْهُ فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

إِحْدَاهَا: الْعَمَلُ بِمَا عَلِمَ، حَتَّى يَكُونَ قَوْلُهُ مُطَابِقًا لِفِعْلِهِ، فَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا لَهُ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ لِأَنْ يُؤْخَذَ عَنْهُ، وَلَا أَنْ يُقْتَدَى بِهِ فِي عِلْمٍ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ رَبَّاهُ الشُّيُوخُ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ؛ لِأَخْذِهِ عَنْهُمْ، وَمُلَازَمَتِهِ لَهُمْ، فَهُوَ الْجَدِيرُ بِأَنْ يَتَّصِفَ بِمَا اتَّصَفُوا بِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

فَأَوَّلُ ذَلِكَ مُلَازَمَةُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَخْذُهُمْ بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَاعْتِمَادُهُمْ عَلَى مَا يَرِدُ مِنْهُ كَائِنًا مَا كَانَ، وَعَلَى أَيِّ وَجْهٍ صَدَرَ، فَهُمْ فَهِمُوا مَغْزَى مَا أَرَادَ بِهِ أَوَّلًا، حَتَّى عَلِمُوا وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا يُعَارَضُ، وَالْحِكْمَةُ الَّتِي لَا يَنْكَسِرُ قَانُونُهَا، وَلَا يَحُومُ النَّقْصُ حَوْلَ حِمَى كَمَالِهَا، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِكَثْرَةِ الْمُلَازَمَةِ، وَشِدَّةِ الْمُثَابَرَةِ...**إِلَى أَنْ قَالَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: وَصَارَ مِثْلُ ذَلِكَ أَصْلًا لِمَنْ بَعْدَهُمْ، فَالْتَزَمَ التَّابِعُونَ فِي الصَّحَابَةِ سِيرَتَهُمْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى فَقِهُوا، وَنَالُوا ذِرْوَةَ الْكَمَالِ فِي الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وَحَسْبُكَ مِنْ صِحَّةِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ **أَنَّكَ لَا تَجِدُ عَالِمًا اشْتَهَرَ فِي النَّاسِ الْأَخْذُ عَنْهُ إِلَّا وَلَهُ قُدْوَةٌ، وَاشْتُهِرَ فِي قَرْنِهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَقَلَّمَا وُجِدَتْ فِرْقَةٌ زَائِغَةٌ وَلَا أَحَدٌ مُخَالِفٌ لِلسُّنَّةِ إِلَّا وَهُوَ مُفَارِقٌ لِهَذَا الْوَصْفِ.**

وَالثَّالِثَةُ: الِاقْتِدَاءُ بِمَنْ أَخَذَ عَنْهُ، وَالتَّأَدُّبُ بِأَدَبِهِ، كَمَا عَلِمْتَ مِنِ اقْتِدَاءِ الصَّحَابَةِ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَاقْتِدَاءِ التَّابِعِينَ بِالصَّحَابَةِ، وَهَكَذَا فِي كُلِّ قَرْنٍ، وَبِهَذَا الْوَصْفِ امْتَازَ مَالِكٌ عَنْ أَضْرَابِهِ -أَعْنِي: بِشِدَّةِ الِاتِّصَافِ بِهِ- وَإِلَّا فَالْجَمِيعُ مِمَّنْ يُهْتَدَى بِهِ فِي الدِّينِ، كَذَلِكَ كَانُوا، وَلَكِنَّ مَالِكًا رَحِمَهُ اللَّهُ اشْتُهِرَ بِالْمُبَالَغَةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى، فَلَمَّا تُرِكَ هَذَا الْوَصْفُ رَفَعَتِ الْبِدَعُ رُءُوسَهَا؛ لِأَنَّ تَرْكَ الِاقْتِدَاءِ دَلِيلٌ عَلَى أَمْرٍ حَدَثَ عِنْدَ التَّارِكِ أَصْلُهُ اتِّبَاعُ الْهَوَى (١).

قَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: يَنْبَغِي لِلطَّالِبِ أَنْ يُقَدِّمَ النَّظَرَ، وَيَسْتَخِيرَ اللهَ فِيمَنْ يَأْخُذُ الْعِلْمَ عَنْهُ،

---

(١) «الْمُوَافَقَاتُ» (١/ ١٣٩: ١٤٥).

وَيَكْتَسِبُ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ مِنْهُ.

وَلْيَكُنْ إِنْ أَمْكَنَ مِمَّنْ كَمُلَتْ أَهْلِيَّتُهُ، وَتَحَقَّقَتْ شَفَقَتُهُ، وَظَهَرَتْ مُرُوءَتُهُ، وَعُرِفَتْ عِفَّتُهُ، وَاشْتُهِرَتْ صِيَانَتُهُ، وَكَانَ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا، وَأَجْوَدَ تَفْهِيمًا.

وَلَا يَرْغَبُ الطَّالِبُ فِي زِيَادَةِ الْعِلْمِ مَعَ نَقْصٍ فِي وَرَعٍ أَوْ دِينٍ، أَوْ عَدَمِ خُلُقٍ جَمِيلٍ...وَإِذَا سَبَرْتَ أَحْوَالَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ لَمْ تَجِدِ النَّفْعَ يَحْصُلُ غَالِبًا وَالْفَلَاحُ يُدْرِكُ طَالِبًا إِلَّا إِذَا كَانَ لِلشَّيْخِ مِنَ التَّقْوَى نَصِيبٌ وَافِرٌ، وَعَلَى شَفَقَتِهِ وَنُصْحِهِ لِلطَّلَبَةِ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ.

وَكَذَلِكَ إِذَا اعْتَبَرْتَ الْمُصَنَّفَاتِ وَجَدْتَ الِانْتِفَاعَ بِتَصْنِيفِ الْأَتْقَى الْأَزْهَدِ أَوْفَرَ، وَالْفَلَاحَ بِالِاشْتِغَالِ بِهِ أَكْثَرَ.

وَلْيَجْتَهِدْ عَلَى أَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ مِمَّنْ لَهُ عَلَى الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ تَمَامُ الِاطِّلَاعِ، وَلَهُ مَعَ مَنْ يُوثَقُ بِهِ مِنْ مَشَايِخِ عَصْرِهِ كَثْرَةُ بَحْثٍ وَطُولُ اجْتِمَاعٍ، لَا مِمَّنْ أَخَذَ عَنْ بُطُونِ الْأَوْرَاقِ، وَلَمْ يُعْرَفْ بِصُحْبَةِ الْمَشَايِخِ الْحُذَّاقِ [1].

فَاحْذَرْ مِنْ أَخْذِ الْعِلْمِ وَتَلَقِّيهِ عَمَّنْ تَصَدَّرُوا بِلَا طَلَبٍ مُعْتَمِدِينَ عَلَى الْكُتُبِ دُونَ الرُّجُوعِ إِلَى كِبَارِ أَهْلِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ خِلَافُ مَنْهَجِ السَّلَفِ، فَهُوَ يُضَيِّعُ حيَاتَكَ، وَيُعِيقُ مَسِيرَتَكَ، وَيَقْطَعُ فِي الْعِلْمِ نَسَبَكَ.

وَاحْذَرْ أَخِي حَفِظَكَ اللهُ مِنْ أَخْذِ الْعِلْمِ وَتَلَقِّيهِ عَنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ. قَالَ الله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الْكَهْفِ: ٢٨].

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: فَإِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ أَنْ يَقْتَدِيَ بِرَجُلٍ فَلْيَنْظُرْ: هَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الذِّكْرِ أَوْ مِنَ الْغَافِلِينَ؟ وَهَلِ الْحَاكِمُ عَلَيْهِ الْهَوَى أَوِ الْوَحْيِ؟

فَإِنْ كَانَ الْحَاكِمُ عَلَيْهِ هُوَ الْهَوَى وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْغَفْلَةِ كَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا.

---

(١) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» (ص:١٨٦،١٨٧).

وَمَعْنَى الْفُرُطِ قَدْ فُسِّرَ بِالتَّضْيِيعِ، أَيْ: أَمْرُهُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَلْزَمَهُ وَيَقُومَ بِهِ وَبِهِ رُشْدُهُ وَفَلَاحُهُ ضَائِعٌ، قَدْ فَرَّطَ فِيهِ. وَفُسِّرَ بِالْإِسْرَافِ أَيْ: قَدْ أَفْرَطَ. وَفُسِّرَ بِالْإِهْلَاكِ. وَفُسِّرَ بِالْخِلَافِ لِلْحَقِّ.

وَكُلُّهَا أَقْوَالٌ مُتَقَارِبَةٌ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَهَى عَنْ طَاعَةِ مَنْ جَمَعَ هَذِهِ الصِّفَاتِ.

فَيَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَنْظُرَ فِي شَيْخِهِ وَقُدْوَتِهِ وَمَتْبُوعِهِ، فَإِنْ وَجَدَهُ كَذَلِكَ فَلْيَبْعُدْ مِنْهُ، وَإِنْ وَجَدَهُ مِمَّنْ غَلَبَ عَلَيْهِ ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَأَمْرُهُ غَيْرُ مَفْرُوطٍ عَلَيْهِ بَلْ هُوَ حَازِمٌ فِي أَمْرِهِ فَلْيَسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ[1].

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: مُتَّبِعُ الْهَوَى لَيْسَ أَهْلًا أَنْ يُطَاعَ، وَلَا يَكُونُ إِمَامًا وَلَا مَتْبُوعًا؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَزَلَهُ عَنِ الْإِمَامَةِ، وَنَهَى عَنْ طَاعَتِهِ:

أَمَّا عَزْلُهُ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ لِخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢].

أَيْ: لَا يَنَالُ عَهْدِي بِالْإِمَامَةِ ظَالِمًا، وَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَهُوَ ظَالِمٌ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩].

وَأَمَّا النَّهْيُ عَنْ طَاعَتِهِ فَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الْكَهْفِ: ٢٨] .[2]

وَاحْذَرْ أَخِي طَالِبَ الْعِلْمِ مِنَ التَّتَلْمُذِ عَلَى الْكُتُبِ وَالْوَسَائِلِ الْحَدِيثَةِ دُونَ الرُّجُوعِ إِلَى الْعُلَمَاءِ الْكِبَّارِ الْمُحَقِّقِينَ.

فَالِاعْتِمَادُ عَلَى الْكُتُبِ دُونَ الْعُلَمَاءِ يُضَيِّعُ وَقْتَكَ، وَيُبَدِّدُ عُمْرَكَ، وَيَمْنَعُكَ الْفَوَائِدَ الْفَرَائِدَ، وَيُوقِعُكَ فِي أَضْرَارٍ عَظِيمَةٍ، وَبِهِ لَنْ تَكُونَ إِمَامًا يُتَلَقَّى مِنْكَ، أَوْ يُؤْخَذُ عَنْكَ.

---

(١) «الْوَابِلُ الصَّيِّبُ مِنَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ» (ص:٤١).

(٢)«رَوْضَةُ الْمُحِبِّينَ وَنُزْهَةُ الْمُشْتَاقِينَ» (ص:٤٧٥).

وَهَذِهِ فِتْنَةٌ غَرَّتِ الْيَوْمَ كَثِيرًا مِنْ شَبَابِنَا فَأَوْقَعَتْهُمْ فِي آفَاتٍ عَظِيمَةٍ، وَأَضْرَارٍ جَسِيمَةٍ، مِنَ الْعُجْبِ وَالْغُرُورِ، وَالْإِزْرَاءِ بِالْعُلَمَاءِ الْكِبَارِ، وَالتَّزْهِيدِ فِي مُلَاقَاتِهِمْ، وَالتَّلَقِّي عَلَى أَيْدِيهِمْ.

وَالتَلَقِّي يَكُونُ بِالْمُشَافَهَةِ، وَالْمُطَالَعَةِ بِشُرُوطِهَا.

قَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَخْذِ الْعِلْمِ عَنْ أَهْلِهِ، فَلِذَلِكَ طَرِيقَانِ:

أَحَدُهُمَا: الْمُشَافَهَةُ، وَهِيَ أَنْفَعُ الطَّرِيقَيْنِ وَأَسْلَمُهُمَا؛ لِوَجْهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: خَاصِّيَّةٌ جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى بَيْنَ الْمُعَلِّمِ وَالْمُتَعَلِّمِ، يَشْهَدُهَا كُلُّ مَنْ زَاوَلَ الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءُ، فَكَمْ مِنْ مَسْأَلَةٍ يَقْرَأُهَا الْمُتَعَلِّمُ فِي كِتَابٍ وَيَحْفَظُهَا وَيُرَدِّدُهَا عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَفْهَمُهَا، فَإِذَا أَلْقَاهَا إِلَيْهِ الْمُعَلِّمُ فَهِمَهَا بَغْتَةً، وَحَصَلَ لَهُ الْعِلْمُ بِهَا بِالْحَضْرَةِ، وَهَذَا الْفَهْمُ يَحْصُلُ إِمَّا بِأَمْرٍ عَادِيٍّ مِنْ قَرَائِنِ أَحْوَالٍ، وَإِيضَاحِ مَوْضِعِ إِشْكَالٍ لَمْ يَخْطُرْ لِلْمُتَعَلِّمِ بِبَالٍ، وَقَدْ يَحْصُلُ بِأَمْرٍ غَيْرِ مُعْتَادٍ، وَلَكِنْ بِأَمْرٍ يَهَبُهُ اللهُ لِلْمُتَعَلِّمِ عِنْدَ مُثُولِهِ بَيْنَ يَدَيِ الْمُعَلِّمِ ظَاهِرَ الْفَقْرِ، بَادِيَ الْحَاجَةِ إِلَى مَا يُلْقَى إِلَيْهِ، وَهَذَا لَيْسَ يُنْكَرُ، فَقَدْ نَبَّهَ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ الَّذِي جَاءَ: إِنَّ الصَّحَابَةَ أَنْكَرُوا أَنْفُسَهُمْ عِنْدَمَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَحَدِيثُ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا عِنْدَهُ وَفِي مَجْلِسِهِ كَانُوا عَلَى حَالَةٍ يَرْضَوْنَهَا، فَإِذَا فَارَقُوا مَجْلِسَهُ زَالَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ كَمَا تَكُونُونَ عِنْدِي؛ لَأَظَلَّتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا**»، وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَافَقْتُ رَبِي فِي ثَلَاثٍ.

وَهِيَ مِنْ فَوَائِدِ مُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ؛ إِذْ يُفْتَحُ لِلْمُتَعَلِّمِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا لَا يُفْتَحُ لَهُ دُونَهُمْ، وَيَبْقَى ذَلِكَ النُّورُ لَهُمْ بِمِقْدَارِ مَا بَقُوا فِي مُتَابَعَةِ مُعَلِّمِهِمْ، وَتَأَدُّبِهِمْ مَعَهُ، وَاقْتِدَائِهِمْ بِهِ، فَهَذَا الطَّرِيقُ نَافِعٌ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ.

ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: **الطَّرِيقُ الثَّانِي: مُطَالَعَةُ كُتُبِ الْمُصَنِّفِينَ وَمُدَوِّنِي الدَّوَاوِينَ، وَهُوَ أَيْضًا نَافِعٌ فِي بَابِهِ بِشَرْطَيْنِ:**

الْأَوَّلُ: أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مِنْ فَهْمِ مَقَاصِدِ ذَلِكَ الْعِلْمِ الْمَطْلُوبِ وَمَعْرِفَةِ اصْطِلَاحَاتِ أَهْلِهِ مَا يَتِمُّ لَهُ بِهِ النَّظَرُ فِي الْكُتُبِ، وَذَلِكَ يَحْصُلُ بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِ، وَمِنْ مُشَافَهَةِ الْعُلَمَاءِ، أَوْ مِمَّا هُوَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: **كَانَ الْعِلْمُ فِي صُدُورِ الرِّجَالِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْكُتُبِ، وَمَفَاتِحُهُ بِأَيْدِي الرِّجَالِ.**

وَالْكُتُبُ وَحْدَهَا لَا تُفِيدُ الطَّالِبَ مِنْهَا شَيْئًا دُونَ فَتْحِ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ مُشَاهَدٌ مُعْتَادٌ.

وَالشَّرْطُ الْآخَرُ: أَنْ يَتَحَرَّى كُتُبَ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الْمُرَادِ؛ فَإِنَّهُمْ أَقْعَدُ بِهِ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَأَصْلُ ذَلِكَ التَّجْرِبَةُ وَالْخَبَرُ.

أَمَّا التَّجْرِبَةُ: فَهُوَ أَمْرٌ مُشَاهَدٌ فِي أَيِّ عِلْمٍ كَانَ، **فَالْمُتَأَخِّرُ لَا يَبْلُغُ مِنَ الرُّسُوخِ فِي عِلْمٍ مَا يَبْلُغُهُ الْمُتَقَدِّمُ**، وَحَسْبُكَ مِنْ ذَلِكَ أَهْلُ كُلِّ عِلْمٍ عَمَلِيٍّ أَوْ نَظَرِيٍّ؛ فَأَعْمَالُ الْمُتَقَدِّمِينَ -فِي إِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ وَدِينِهِمْ- عَلَى خِلَافِ أَعْمَالِ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَعُلُومُهُمْ فِي التَّحْقِيقِ أَقْعَدُ، فَتَحَقُّقُ الصَّحَابَةِ بِعُلُومِ الشَّرِيعَةِ لَيْسَ كَتَحَقُّقِ التَّابِعِينَ، وَالتَّابِعُونَ لَيْسُوا كَتَابِعِيهِمْ، وَهَكَذَا إِلَى الْآنِ، وَمَنْ طَالَعَ سِيَرَهُمْ وَأَقْوَالَهُمْ وَحِكَايَاتِهِمْ أَبْصَرَ الْعَجَبَ فِي هَذَا الْمَعْنَى.

وَأَمَّا الْخَبَرُ: فَفِي الْحَدِيثِ: «**خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ كُلَّ قَرْنٍ مَعَ مَا بَعْدَهُ كَذَلِكَ ...**إِلَى أَنْ قَالَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْأَخْبَارُ هُنَا كَثِيرَةٌ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى نَقْصِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَأَعْظَمُ ذَلِكَ الْعِلْمُ، فَهُوَ إِذًا فِي نَقْصٍ بِلَا شَكٍّ؛ فَلِذَلِكَ صَارَتْ كُتُبُ الْمُتَقَدِّمِينَ وَكَلَامُهُمْ وَسِيَرُهُمْ أَنْفَعُ لِمَنْ أَرَادَ الْأَخْذَ بِالِاحْتِيَاطِ فِي الْعِلْمِ عَلَى أَيِّ نَوْعٍ كَانَ، وَخُصُوصًا عِلْمُ الشَّرِيعَةِ، الَّذِي هُوَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، وَالْوَزَرُ الْأَحْمَى، وَبِاللهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ [1].

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: **إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ، فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ** [2].

وعَنِ الْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: **لَا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ عَنْ أَرْبَعَةَ، سَفِيهٍ مُعْلِنِ السَّفَهِ، وَصَاحِبِ هَوًى**

---

(١) «الْمُوَافَقَاتُ» (١/ ١٤٥:١٥٤).

(٢) «مُقَدِّمَـةُ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (١/ ١٤).

يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ، وَرَجُلٍ مَعْرُوفٍ بِالْكَذِبِ فِي أَحَادِيثِ النَّاسِ وَإِنْ كَانَ لَا يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَجُلٍ لَهُ فَضْلٌ وَصَلَاحٌ لَا يَعْرِفُ مَا يُحَدِّثُ بِهِ (١).

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ بَرْجَسٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «عَوَائِقُ الطَّلَبِ» (ص: ٣٤): فَيَا أَيُّهَا الطُّلَّابُ إِذَا أَرَدْتُمُ الْعِلْمَ مِنْ مَنَابِعِهِ فَهَاهُمُ الْعُلَمَاءُ الْكِبَارُ، الَّذِينَ شَابَتْ لِحَاهُمْ، وَنَحَلَتْ جُسُومُهُمْ، وَذَبُلَتْ قُوَاهُمْ فِي الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ.

الْزَمُوهُمْ قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُوهُمْ، وَاسْتَخْرِجُوا كُنُوزَهُمْ قَبْلَ أَنْ تُوَارَى مَعَهُمْ، وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ.

تَنْبِيهٌ: فِي هَذَا الزَّمَانِ اخْتَلَّ مِعْيَارُ كَثِيرٍ مِنَ الْعَامَّةِ فِي تَقْيِيمِ الْعُلَمَاءِ، فَجُعِلَ كُلُّ مَنْ وَعَظَ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، أَوْ أَلْقَى مُحَاضَرَاتٍ هَادِفَةً، أَوْ خَطَبَ الْجُمْعَةَ مُرْتَجِلًا ... عَالِمًا يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي الْإِفْتَاءِ، وَيُؤْخَذُ الْعِلْمُ عَنْهُ.

وَهَذِهِ رَزِيَّةٌ مُؤْلِمَةٌ، وَظَاهِرَةٌ مُزْرِيَةٌ، تَطَايَرَ شَرَرُهَا، وَعَمَّ ضَرَرُهَا، إِذْ هِيَ مِنْ إِسْنَادِ الْعِلْمِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، وَإِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ.

النصيحة الرابعة: التأدُّب مع العلماء.

وهذه من أفضل الوسائل لأخذ العلم الكثير عنهم، وأما عدم الالتزام بالأدب مع العلماء، فهو سبب الحرمان من علمهم، وسوف نذكر صورًا من تأدب سلفنا الصالح مع علمائهم.

أخرج الْحَافِظُ ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»: عَنْ طَاوُس رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «مِنَ السُّنَّةِ أَنْ يُوَقَّرَ الْعَالِمُ».

---

(١)«جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلُهُ» (٢/ ٨٢١).

وأخرج الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي»: عَنِ الشَّعْبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَمْسَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِرِكَابِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: «أَتَمْسِكُ لِي وَأَنْتَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ»؟ قَالَ: «إِنَّا هَكَذَا نَصْنَعُ بِالْعُلَمَاءِ».

ولم يقع ذلك مِنِ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حبرِ الأمة وترجمان القرآن مع زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقط، بل مع غيره أيضًا، أخرج الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي»: عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: رُئِيَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَأْخُذُ بِرِكَابِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، فَقِيلَ لَهُ: «أَنْتَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ تَأْخُذُ بِرِكَابِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ» فَقَالَ: «إِنَّهُ يَنْبَغِي لِلْحَبْرِ أَنْ يُعَظَّمَ وَيُشَرَّفَ».

وأخرج الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير»: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَقَدْ عَلِمَ المَحْفُوْظُوْنَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّ زَيْدَ بنَ ثَابِتٍ مِنَ الرَّاسِخِيْنَ فِي العِلْمِ.

وأخرج أيضًا: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ، قَالَ: كَانَ يَحْيَى بنُ سَعِيْدٍ يُجَالِسُ رَبِيْعَةَ، فَإِذَا غَابَ رَبِيْعَةُ، حَدَّثَهم يَحْيَى أَحْسَنَ الحَدِيْثِ -وَكَانَ كَثِيْرَ الحَدِيْثِ- فَإِذَا حَضَرَ رَبِيْعَةُ، كفَّ يَحْيَى إِجْلَالًا لِرَبِيْعَةَ، وَلَيْسَ رَبِيْعَةُ أَسنَّ مِنْهُ، وَهُوَ فِيْمَا هُوَ فِيْهِ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُبجِّلًا لِصَاحِبِهِ.

وأخرج الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي»: عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: كَانَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ يُحَدِّثُنَا فَيَسِحُّ عَلَيْنَا مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ، وَيُشِيرُ عُبَيْدُ اللهِ بِيَدَيْهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى، قَالَ عُبَيْدُ اللهِ: فَإِذَا طَلَعَ رَبِيعَةُ قَطَعَ يَحْيَى حَدِيثَهُ إِجْلَالًا لِرَبِيعَةَ وَإِعْظَامًا لَهُ.

وأخرج أيضًا عَنْ شُعْبَةَ قَالَ: «حَدَّثَنِي سَيِّدُ الْفُقَهَاءِ أَيُّوبُ».

وأخرج الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير»: عَنْ حَاشِدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ قَالَ: كُنْتُ بِالبَصْرَةِ، فَسَمِعْتُ قُدُومَ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ بُنْدَارٌ: اليَوْمَ دَخَلَ سَيِّدُ الفُقَهَاءِ.

وأخرج أيضًا عنْ مُحَمَّدُ بنُ حمدُوْن بنِ رُسْتُمَ قال: سَمِعْتُ مُسْلِمَ بنَ الحَجَّاجِ، وَجَاءَ إِلَى البُخَارِيِّ فَقَالَ: دَعْنِي أُقَبِّلْ رجليكَ يَا أُسْتَاذَ الأُسْتَاذِين، وَسَيِّدَ المُحَدِّثِيْنَ، وَطبيبَ الحَدِيْثِ فِي عِلَلِهِ.

وذكر الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير» عنِ ابْنِ مَاجَهْ القَزْوِيْنِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: جَاءَ يَحْيَى ابنُ مَعِيْنٍ إِلَى أَحْمَدَ ابنِ حَنْبَلٍ، فَبَيْنَا هُوَ عِنْدَهُ، إِذْ مرَّ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ عَلَى بَغْلَتِهِ، فَوَثَبَ أَحْمَدُ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَتَبِعَهُ فَأَبْطَأَ، وَيَحْيَى جَالِسٌ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ يَحْيَى: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! كَمْ هَذَا؟ فَقَالَ: دَعْ عَنْكَ هَذَا، إِنْ أَرَدْتَ الفِقْهَ فَالْزَمْ ذَنَبَ البَغْلَةِ. اهـ

وأخرج الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير»: عنْ عَمْرُو بنِ عُثْمَانَ المَكِّيِّ عَنِ الزَّعْفَرَانِيِّ، عَنْ يَحْيَى بنِ مَعِيْنٍ، سَمِعْتُ يَحْيَى بنَ سَعِيْدٍ يَقُوْلُ: أَنَا أَدْعُو اللهَ لِلشَّافِعِيِّ فِي صَلاَتِي مُنْذُ أَرْبَعِ سِنِيْنَ.

وأخرج الْحَافِظُ ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»: عَنِ الزُّهْرِيِّ: «كَانَ أَبُو سَلَمَةَ يُمَارِي ابْنَ عَبَّاسٍ فَحُرِمَ بِذَلِكَ عِلْمًا كَثِيرًا».

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «إعلام الموقعين»: فُقَهَاءُ الْإِسْلَامِ، وَمَنْ دَارَتْ الْفُتْيَا عَلَى أَقْوَالِهِمْ بَيْنَ الْأَنَامِ، الَّذِينَ خُصُّوا بِاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ، وَعَنَوْا بِضَبْطِ قَوَاعِدِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ؛ فَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، بِهِمْ يَهْتَدِي الْحَيْرَانُ فِي الظَّلْمَاءِ، وَحَاجَةُ النَّاسِ إلَيْهِمْ أَعْظَمُ مِنْ حَاجَتِهِمْ إلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ. اهـ

إنَّ الجنايةَ على العلماءِ ثُلْمَةٌ في الدِّين تُذهبُ آخرةَ العبد، أخرج الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير» عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: مَنِ اسْتَخَفَّ بِالعُلَمَاءِ، ذَهَبَتْ آخِرَتُهُ، وَمَنِ اسْتَخَفَّ بِالأُمَرَاءِ، ذَهَبَتْ دُنْيَاهُ، وَمَنِ اسْتَخَفَّ بِالإِخْوَانِ، ذَهَبَتْ مُرُوءَتُهُ.

وقال ابن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ في «تبيين كذب المفترى عليه»: اعْلَمْ يَا أَخِي وَفَّقَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ لِمَرْضَاتِهِ، وَجَعَلَنَا مِمَّنْ يَخْشَاهُ وَيَتَّقِيهِ حقَّ تقاتِهِ، أَنَّ لُحُومَ الْعُلَمَاءِ مَسْمُومَةٌ، وَعَادَةَ اللهِ فِي هَتْكِ أَسْتَارِ مُنْتَقِصِهِمْ مَعْلُومَةٌ، وَأَنَّ مَنْ أَطْلَقَ لِسَانَهُ فِي الْعُلَمَاءِ بالثَّلْبِ بَلاَهُ اللهُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِمَوْتِ القَلْبِ، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النّور: ٦٣].

أخرج أحمد وأبو داود، واللفظ له، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الدِّيكَ فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ».

فَلَئِنْ نَهى رسولُ الله ﷺ عن سبِّ الديكِ لأنه يوقظُ للصلاة، فكيف بمَنْ يسبُّ العلماء، ويطعنُ فيهم باطنًا أو ظاهرًا؟!! وهم ورثةُ الأنبياءِ، وحُماةُ الدين بإذن الله.

ومع ذلك لابد من النّصح وبيان الخطأ، ولكن بأدب ورفق. أخرج أحمدُ والشيخان وابنُ ماجه عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ دَخَلْتُ أَنَا وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جَالِسٌ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ الضُّحَى فِي الْمَسْجِدِ فَسَأَلْنَاهُ عَنْ صَلَاتِهِمْ، فَقَالَ بِدْعَةٌ، فَقَالَ لَهُ عُرْوَةُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ كَمْ اعْتَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَرْبَعَ عُمَرٍ، إِحْدَاهُنَّ فِي رَجَبٍ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُكَذِّبَهُ وَنَرُدَّ عَلَيْهِ، وَسَمِعْنَا اسْتِنَانَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي الْحُجْرَةِ، فَقَالَ عُرْوَةُ: أَلَا تَسْمَعِينَ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يَقُولُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ فَقَالَتْ: وَمَا يَقُولُ؟ قَالَ: يَقُولُ اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعَ عُمَرٍ إِحْدَاهُنَّ فِي رَجَبٍ! فَقَالَتْ: يَرْحَمُ اللهُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا اعْتَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا وَهُوَ مَعَهُ، وَمَا اعْتَمَرَ فِي رَجَبٍ قَطُّ.

وهذا في الحقيقة وقع مراتٍ في ردِّ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خطأَ ابنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في أدبٍ جمٍّ، ومِن ذلك أيضًا: ما أخرجه أحمدُ ومسلمٌ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْتَشِرِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ الرَّجُلِ يَتَطَيَّبُ، ثُمَّ يُصْبِحُ مُحْرِمًا، فَقَالَ: مَا أُحِبُّ أَنْ أُصْبِحَ مُحْرِمًا أَنْضَخُ طِيبًا، لَأَنْ أَطَّلِيَ

بِقَطِرَانٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ. فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَأَخْبَرْتُهَا أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَا أُحِبُّ أَنْ أُصْبِحَ مُحْرِمًا أَنْضَخُ طِيبًا، لَأَنْ أَطَّلِيَ بِقَطِرَانٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَا طَيَّبْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عِنْدَ إِحْرَامِهِ، ثُمَّ طَافَ فِي نِسَائِهِ، ثُمَّ أَصْبَحَ مُحْرِمًا.

ومِن بعد الصحابة سار على الدرب الأئمةُ تجاه بعضهم البعض، ومِن ذلك:

قَالَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مُسْتَخْرَجِهِ» مُستدركًا مسألةً على البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: رَحِمَ اللهُ أَبَا عَبْدِ اللهِ - يَعْنِي الْبُخَارِيَّ- مَنْ ذَا الَّذِي يَسْلَمُ مِنَ الْغَلَطِ.

النصيحة الخامسة: التَّدَرُّجُ مِعْرَاجُ التَّخَرُّجِ.

لَا يَخْتَلِفُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي أَنَّ التَّدَرُّجَ مِعْرَاجُ التَّخَرُّجِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء]، وقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[الفرقان] .

فَمِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مُفَرَّقًا عَلَى ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران].

أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عَبَاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ حُكَمَاءَ فُقَهَاءَ.

وَيُقَالُ: الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ.

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١/ ١٠٨): الْمُرَادُ بِصِغَارِ الْعِلْمِ مَا وَضَحَ مِنْ مَسَائِلِهِ، وَبِكِبَارِهِ مَا دَقَّ مِنْهَا. وَقِيلَ: يُعَلِّمُهُمْ جُزْئِيَّاتِهِ قَبْلَ كُلِّيَّاتِهِ، أَوْ فُرُوعَهُ قَبْلَ أُصُولِهِ، أَوْ مُقَدِّمَاتِهِ قَبْلَ مَقَاصِدِهِ.

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ» (٢/ ١١٢٩): طَلَبُ الْعِلْمِ دَرَجَاتٌ

وَمَنَاقِلُ وَرُتَبٌ لَا يَنْبَغِي تَعَدِّيهَا، وَمَنْ تَعَدَّاهَا جُمْلَةً فَقَدْ تَعَدَّى سَبِيلَ السَّلَفِ ، وَمَنْ تَعَدَّى سَبِيلَهُمْ عَامِدًا ضَلَّ، وَمَنْ تَعَدَّاهُ مُجْتَهِدًا زَلَّ.

النَّصِيحَةُ السادسةُ: طَالِبُ الْعِلْمِ وَالتَّصْنِيفُ

قَالَ الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَذْكِـرَةُ السَّامِعِ وَالمُتَكَلِّـمِ» (ص: ٢٩): الْأَوْلَى أَنْ يَعْتَنِيَ بِمَا يَعُمُّ نَفْعُهُ، وَتَكْثُرُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، وَلْيَكُنِ اعْتِنَاؤُهُ بِمَا لَمْ يُسْبَقْ إِلَى تَصْنِيفِهِ، مُتَحَرِّيًا إِيضَاحَ الْعِبَارَةِ فِي تَأْلِيفِهِ، مُعْرِضًا عَنِ التَّطْوِيلِ الْمُمِلِّ، وَالْإِيجَازِ الْمُخِلِّ، مَعَ إِعْطَاءِ كُلِّ مُصَنَّفٍ مَا يَلِيقُ بِهِ.

وَلَا يُخْرِجُ تَصْنِيفَهُ مِنْ يَدِهِ قَبْلَ تَهْذِيبِهِ، وَتَكْرِيرِ النَّظَرِ فِيهِ، وَتَرْتِيبِهِ.

قَالَ ابْنُ الْجَـوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «صَيْـدُ الْخَاطِـرِ» (ص:٢٧): وَإِنِّي تَدَبَّرْتُ أَحْوَالَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ وَالْمُتَزَهِدِّينَ، فَرَأَيْتُهُمْ فِي عُقُوبَاتٍ لَا يَحُسُّونَ بِهَا، وَمُعْظَمُهَا مِنْ قِبَلِ طَلَبِهِمْ لِلرِّئَاسَةِ، فَالْعَالِمُ مِنْهُمْ يَغْضَبُ إِنْ رُدَّ عَلَيْهِ خَطَؤُهُ، وَالْوَاعِظُ مُتَصَنِّعٌ بِوَعْظِهِ، وَالْمُتَزَهِّدُ مُنَافِقٌ أَوْ مُرَاءٍ.

فَأَوَّلُ عُقُوبَاتِهِمْ: إِعْرَاضُهُمْ عَنِ الْحَقِّ شُغْلًا بِالْخَلْقِ، **وَمِنْ خَفِيِّ عُقُوبَاتِهِمْ**: سَلْبُ حَلَاوَةِ الْمُنَاجَاةِ، وَلَذَّةِ التَّعَبُّدِ، **إِلَّا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ، وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ، يَحْفَظُ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ، بَوَاطِنُهُمْ كَظَوَاهِرِهِمْ بَلْ أَجْلَى، وَسَرَائِرُهُمْ كَعَلَانِيَتِهِمْ بَلْ أَحْلَى، وَهِمَمُهُمْ عِنْدَ الثُّرَيَّا بَلْ أَعْلَى، إِنْ عُرِفُوا تَنَكَّرُوا، وَإِنْ رُئِيَتْ لَهُمْ كَرَامَةٌ أَنْكَرُوا، فَالنَّاسُ فِي غَفَـلَاتِهِمْ، وَهُمْ فِي قَطْـعِ فَلَاتِهِـمْ، تُحِبُّهُمْ بِقَاعُ الْأَرْضِ، وَتَفْرَحُ بِهِمْ أَمْلَاكُ السَّمَاءِ. نَسْأَلُ الله** عَزَّوَجَلَّ **التَّوْفِيقَ لِاتِّـبَاعِهِمْ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَتْـبَاعِهِمْ.**

النَّصِيحَـةُ السابعةُ: الحفاظ على الْوَقْتُ

إِنَّ مِمَّا يَلْزَمُكَ أَخِي طَـالِبَ الْعِلْمِ أَنْ تُحَافِظَ عَلَى أَوْقَاتِكَ مِنَ الضَّيَاعِ وَالتَّبْدِيدِ.

وَيَدُلُّكَ عَلَى شَرَفِ الْوَقْتِ، وَأَهَمِيَّةِ حِفْظِهِ أَنَّ اللهَ ﷻ أَقْسَمَ بِهِ، وَبِأَجْزَاءَ مِنْهُ فِي كِتَابِهِ، وَسُمِّيَتْ بِهِ سُوَرٌ فِي الْقُرْآنِ، وَهِيَ سُورَةُ الْعَصْرِ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ ...الخ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾، وَقَالَ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾، وَقَالَ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَبِحِفْظِ الْوَقْتِ يُحْفَظُ الْعُمْرُ، فَيَحْصُلُ الْفَوْزُ وَيَأْتِي الرِّبْحُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَيَتَقَرَّبُ الْعَبْدُ إِلَى اللهِ الْعَزِيزِ الْغَفَارِ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَيَنْجُو مِنَ النَّارِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [الحاقة].

وَبِتَضْيِيعِ الْوَقْتِ يَضِيعُ الْعُمْرُ، وَيَحْصُلُ النَّدَمُ، وَلَكِنْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤﴾ [الفجر].

وَطُولُ الْعُمْرِ مَعَ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ مِنَ النِّعَمِ الْجَلِيلَةِ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمُرُهُ إِلَّا خَيْرًا».

وَعَنِ الْعُمْرِ وَالشَّبَابِ يُسْأَلُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَقْدَامٌ زَوَالُهَا إِلَى الْجَنَّةِ وَالنَّعِيمِ، وَأَقْدَامٌ زَوَالُهَا إِلَى النَّارِ وَالْجَحِيمِ.

أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيِّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ ﵀، عَنِ عَبدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟».

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ ﵀ فِي «صَيْدُ الْخَاطِرِ» (ص:٣٣): يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ شَرَفَ زَمَانِهِ، وَقَدْرَ وَقْتِهِ، فَلَا يُضَيِّعُ مِنْهُ لَحْظَةً فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ، وَيُقَدِّمُ الْأَفْضَلَ فَالْأَفْضَلَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفَوَائِد» (ص:٣١): إِضَاعَةُ الْوَقْتِ أَشَدُّ مِنَ الْمَوْتِ؛ لِأَنَّ إِضَاعَةَ الْوَقْتِ تَقْطَعُكَ عَنِ اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَالْمَوْتُ يَقْطَعُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ **أَيْضًا** فِي «الْمَرْجِعِ السَّابِقِ»: أَعْظَمُ الرِّبْحِ فِي الدُّنْيَا أَنْ تَشْغَلَ نَفْسَكَ كُلَّ وَقْتٍ بِمَا هُوَ أَوْلَى بِهَا وَأَنْفَعَ لَهَا فِي مَعَادِهَا. كَيْفَ يَكُونُ عَاقِلًا مَنْ بَاعَ الْجَنَّةَ بِمَا فِيهَا بِشَهْوَةِ سَاعَةٍ؟!.

وَالْمُحَافِظُ عَلَى وَقْتِهِ غَرِيبٌ بَيْنَ أَقْرَانِهِ.

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ **يَنْعَى عُمُومَ النَّاسِ فِي زَمَانِهِ** فِي «صيدُ الْخَاطِرِ» (ص:١٥٧): رَأَيْتُ عُمُومَ الْخَلَائِقِ يَدْفَعُونَ الزَّمَانَ دَفْعًا عَجِيبًا، إِنْ طَالَ اللَّيْلُ فَبِحَدِيثٍ لَا يَنْفَعُ! أَوْ بِقِرَاءَةِ كِتَابٍ فِيهِ غَزَاةٌ وَسَمَرٌ! وَإِنْ طَالَ النَّهَارُ فَبِالنَّوْمِ! وَهُمْ فِي أَطْرَافِ النَّهَارِ عَلَى دِجْلَةَ أَوْ فِي الْأَسْوَاقِ! فَشَبَّهْتُهُمْ بِالْمُتَحَدِّثِينَ فِي سَفِينَةٍ، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ، وَمَا عِنْدَهُمْ خَبَرٌ!

وَرَأَيْتُ النَّادِرِينَ قَدْ فَهِمُوا مَعْنَى الْوُجُودِ، فَهُمْ فِي تَعْبِئَةِ الزَّادِ، وَالتَّأَهُّبِ لِلرَّحِيلِ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ، وَسَبَبُ تَفَاوُتِهِمْ قِلَّةُ الْعِلْمِ وَكَثْرَتُهُ بِمَا يَنْفَقُ فِي بَلَدِ الْإِقَامَةِ، فَالْمُتَيَقِّظُونَ مِنْهُمْ يَتَطَلَّعُونَ إِلَى الْأَخْبَارِ بِالنَّافِقِ هُنَاكَ، فَيَسْتَكْثِرُونَ مِنْهُ، فَيَزِيدُ رِبْحُهُمْ، وَالْغَافِلُونَ مِنْهُمْ يَحْمِلُونَ مَا اتَّفَقَ، وَرُبَّمَا خَرَجُوا لَا مَعَ خَفِيرٍ، فَكَمْ مِمَّنْ قَدْ قُطِعَتْ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ فَبَقِيَ مُفْلِسًا!. اهـ.

فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ **يَا طَالِبَ الْعِلْمِ** أَعْرَفَ النَّاسِ بِقِيمَةِ الْوَقْتِ وَشَرَفِ الزَّمَانِ.

وَقَالَ الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمْ» (ص:٢٧): وَلَا يُضَيِّعُ (أَيْ: مَنْ يَطْلُبُ الْعِلْمَ) شَيْئًا مِنْ أَوْقَاتِ عُمُرِهِ فِي غَيْرِ مَا هُوَ بِصَدَدِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ إِلَّا بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ: مِنْ أَكْلٍ أَوْ شُرْبٍ أَوْ نَوْمٍ، أَوِ اسْتِرَاحَةٍ لِمَلَلٍ، أَوْ أَدَاءِ حَقِّ زَوْجَةٍ أَوْ زَائِرٍ، أَوْ تَحْصِيلِ قُوتٍ وَغَيْرِهِ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، أَوْ لِأَلَمٍ أَوْ غَيْرِهِ مِمَّا يَتَعَذَّرُ مَعَهُ الِاشْتِغَالُ؛ فَإِنَّ بَقِيَّةَ عُمُرِ الْمُؤْمِنِ لَا قِيمَةَ لَهُ (أَيْ: لاَ يُقَوَّمُ بِثَمَنٍ لِغَلَائِهِ)، وَمَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ لَا يَتْرُكُ الِاشْتِغَالَ لِعُرُوضِ مَرَضٍ خَفِيفٍ، أَوْ أَلَمٍ لَطِيفٍ، بَلْ كَانَ يَسْتَشْفِي بِالْعِلْمِ، وَيَشْغَلُ (أَيْ: نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ) بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ ... وَذَلِكَ

لِأَنَّ دَرَجَةَ الْعِلْمِ دَرَجَةُ وَرَاثَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا تُنَالُ الْمَعَالِي إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ». اهـ

فَلَا يَلِيقُ بِكَ أَنْ تَكُونَ فَارِغًا غَيْرَ مَشْغُولٍ، وَصَحِيحًا غَيرَ مَعْلُولٍ، ذَا فَهْمٍ ثَاقِبٍ، وَبَصَرٍ نَافِذٍ، ثُمَّ لَا تَطْلُبُ دَرَجَةَ وَرَاثَةِ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ تَظُنُّ حُصُولَكَ عَلَيْهَا، أَوْ وُصُولَكَ إِلَيْهَا، وَلَمَّا تَنْصَبُ فِي طَلَبِهَا، وَتَتْعَبُ فِي تَحْصِيلِهَا.

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التذكرة في الوعظ» (ص:٥١): كَمْ بَيْنَ الْفَارِغِ وَالْمَشْغُولِ، كَمْ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالْمَعْلُولِ، لَيْسَ الصَّحِيحُ إِذَا مَشَى كَالْمُقْعَدِ، وَفِي الحَدِيثِ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ». فَالْفَرَاغُ نَظِيرُ الصِّحَّةِ وَقَرِينُهَا، وَكَذَلِكَ الشُّغْلُ نَظِيرُ السُّقْمِ وَقَرِينُهُ.

وَقَالَ الْوَزِيرُ ابْنُ هُبَيْرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «ذَيْلِ طَبَقَاتِ الْحَنَابِلَةِ» (٢/ ١٦٧):

وَالْوَقْتُ أَنْفَسُ مَا عَنِيتُ بِحِفْظِهِ وَأُرَاهُ أَسْهَلُ مَا عَلَيْكَ يَضِيعُ

وَمِنْ أَسْبَابِ تَضْيِيعِ الْوَقْتِ وَتَبْدِيدِهِ صُحْبَةُ الْبَطَّالِينَ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ أَهَمِيَّتَهُ.

فَإِنِ ابْتُلِيتَ بِهِمْ **فَإِلَيْكَ نَصِيحَةُ ابْنِ الْجَوْزِيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ وَمَا فَعَلَ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ خَلْقًا كَثِيرًا يَجْرُونَ مَعِي فِيمَا قَدِ اعْتَادَهُ النَّاسُ مِنْ كَثْرَةِ الزِّيَارَةِ، وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ التَّرَدُّدَ خِدْمَةً، وَيَطْلُبُونَ الْجُلُوسَ، وَيُجْرُونَ فِيهِ أَحَادِيثَ النَّاسِ، وَمَا لَا يَعْنِي، وَمَا يَتَخَلَّلُهُ غِيبَةٌ، وَهَذَا شَيْءٌ يَفْعَلُهُ فِي زَمَانِنَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَرُبَمَا طَلَبَهُ الْمَزُورُ، وَتَشَوَّقَ إِلَيْهِ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الْوِحْدَةِ، وَخُصُوصًا فِي أَيَّامِ التَّهَانِي وَالْأَعْيَادِ، فَتَرَاهُمْ يَمْشِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى الْهَنَاءِ وَالسَّلَامِ، بَلْ يَمْزُجُونَ ذَلِكَ بِمَا ذَكَرْتُهُ مِنْ تَضْيِيعِ الزَّمَانِ.

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّ الزَّمَانَ أَشْرَفُ شَيْءٍ، وَالْوَاجِبَ انْتِهَابُهُ بِفِعْلِ الْخَيْرِ، كَرِهْتُ ذَلِكَ، وَبَقِيتُ مَعَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِنْ أَنْكَرْتُ عَلَيْهِمْ وَقَعَتْ وَحْشَةٌ لِمَوْضِعِ قَطْعِ الْمَأْلُوفِ! وَإِنْ تَقَبَّلْتُهُ مِنْهُمْ ضَاعَ الزَّمَانُ!

فَصِرْتُ أُدَافِعُ اللِّقَاءَ جَهْدِي، فَإِذَا غُلِبْتُ قَصَّرْتُ فِي الْكَلَامِ؛ لِأَتَعَجَّلَ الْفِرَاقَ.

ثُمَّ أَعْدَدْتُ أَعْمَالًا تَمْنَعُ مِنَ الْمُحَادَثَةِ لِأَوْقَاتِ لِقَائِهِمْ؛ لِئَلَّا يَمْضِي الزَّمَانُ فَارِغًا، فَجَعَلْتُ مِنَ الْمُسْتَعَدِّ لِلِقَائِهِمْ: قَطْعَ الْكَاغِدِ، وَبَرْيَ الْأَقْلَامِ، وَحَزْمَ الدَّفَاتِرِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لَابُدَّ مِنْهَا، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى فِكْرٍ، وَحُضُورِ قَلْبٍ، فَأَرْصَدْتُهَا لِأَوْقَاتِ زِيَارَتِهِمْ؛ لِئَلَّا يَضِيعَ شَيْءٌ مِنْ وَقْتِي.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يُعَرِّفَنَا شَرَفَ أَوْقَاتِ الْعُمْرِ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لِاغْتِنَامِهِ.

وَلَقَدْ شَاهَدْتُ خَلْقًا كَثِيرًا لَا يَعْرِفُونَ مَعْنَى الْحَيَاةِ: فَمِنْهُمْ مَنْ أَغْنَاهُ اللهُ عَنِ التَّكَسُّبِ بِكَثْرَةِ مَالِهِ، فَهُوَ يَقْعُدُ فِي السُّوقِ أَكْثَرَ النَّهَارِ، يَنْظُرُ إِلَى النَاسِ، وَكَمْ تَمُرُّ بِهِ مِنْ آفَةٍ وَمُنْكَرٍ! وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْلُو بِلُعَبِ الشِّطْرَنْجِ! وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُ الزَّمَانَ بِكَثْرَةِ الْحَدِيثِ عَنِ السَّلَاطِينِ، وَالْغَلَاءِ وَالرُّخْصِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ؛ فَعَلِمْتُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُطْلِعْ عَلَى شَرَفِ الْعُمْرِ وَمَعْرِفَةِ قَدْرِ أَوْقَاتِ الْعَافِيَةِ إِلَّا مَنْ وَفَقَهُ وَأَلْهَمَهُ اغْتِنَامَ ذَلِكَ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [1].

هَذَا فِي وَصْفِ أَهْلِ زَمَانِهِ رَحِمَهُ اللهُ فَكَيْفَ بِزَمَانِنَا؟!

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ وَحَامِلَهُ: إِنَّمَا يَكُونُ الثَّمَنُ عَلَى قَدْرِ الْمَبِيعِ، لَا تُضَيِّعْ عُمْرَكَ وَزَمَانَكَ، وَاحْرِصْ عَلَى اسْتِغْلَالِ أَوْقَاتِكَ، وَاغْتَنِمْ حَيَاتَكَ؛ فَإِنَ الْعُمْرَ قَصِيرٌ، وَالْعِلْمَ كَثِيرٌ، وَالْقَوَاطِعَ كَثِيرَةٌ، وَالْعَوَائِقَ مَانِعَةٌ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو يُوسَفَ رَحِمَهُ اللهُ: الْعِلْمُ شَيْءٌ لَا يُعْطِيكَ بَعْضَهُ حَتَى تُعْطِيَهُ كُلَّك، وَأَنْتَ إِذَا أَعْطَيْتَهُ كُلَّكَ مِنْ إِعْطَائِهِ الْبَعْضَ عَلَى غَرَرٍ [2] .

وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قَالَ**: تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا [3].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: وَإِنَّمَا أَرَادَ عُمَرُ أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِلْمَنْعِ؛ لِأَنَّ الرَّئِيسَ قَدْ يَمْنَعُهُ الْكِبْرُ وَالِاحْتِشَامُ أَنْ يَجْلِسَ مَجْلِسَ الْمُتَعَلِّمِينَ، وَلِهَذَا قَالَ مَالِكٌ عَنْ عَيْبِ الْقَضَاءِ: إِنَّ الْقَاضِيَ إِذَا عُزِلَ

---

(١) «صيدُ الْخَاطِرِ» (ص:٢٤١،٢٤٠).

(٢)«تاريخ بغداد» (١٦/ ٣٥٩).

(٣)رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُعَلَّقًا بِصِيغَةِ الْجَزْمِ «بَابُ الِاغْتِبَاطِ فِي العِلْمِ وَالحِكْمَةِ» (١/ ٢٥).

لَا يَرْجِعُ إِلَى مَجْلِسِهِ الَّذِي كَانَ يَتَعَلَّمُ فِيهِ. وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِذَا تَصَدَّرَ الْحَدَثُ فَاتَهُ عِلْمٌ كَثِيرٌ. وَقَدْ فَسَّرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ فِي كِتَابِهِ «غَرِيبِ الْحَدِيثِ» فَقَالَ: مَعْنَاهُ تَفَقَّهُوا وَأَنْتُمْ صِغَارٌ، قَبْلَ أَنْ تَصِيرُوا سَادَةً فَتَمْنَعُكُمُ الْأَنَفَةُ عَنِ الْأَخْذِ عَمَّنْ هُوَ دُونَكُمْ فَتَبْقُوا جُهَّالًا. وَفَسَّرَهُ شِمْرٌ اللُّغَوِيُّ بِالتَّزَوُّجِ، فَإِنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَ صَارَ سَيِّدَ أَهْلِهِ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ وُلِدَ لَهُ. وَقِيلَ: أَرَادَ عُمَرُ الْكَفَّ عَنْ طَلَبِ الرِّيَاسَةِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَتَفَقَّهُ يَعْرِفُ مَا فِيهَا مِنَ الْغَوَائِلِ فَيَجْتَنِبَهَا. وَهُوَ حَمْلٌ بَعِيدٌ؛ إِذِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «تُسَوَّدُوا» السِّيَادَةُ، وَهِيَ أَعَمُّ مِنَ التَّزْوِيجِ، وَلَا وَجْهَ لِمَنْ خَصَّصَهُ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ بِهِ وَبِغَيْرِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الشَّاغِلَةِ لِأَصْحَابِهَا عَنِ الِاشْتِغَالِ بِالْعِلْمِ [١].

قَالَ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَيَنْبَغِي أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ (يَعْنِي: طَالِبَ الْعِلْمِ) بِالِاجْتِهَادِ فِي التَّحْصِيلِ فِي وَقْتِ الْفَرَاغِ وَالنَّشَاطِ، وَقُوَّةِ الْبَدَنِ، وَنَبَاهَةِ الْخَاطِرِ، وَقِلَّةِ الشَّاغِلَاتِ، قَبْلَ عَوَارِضِ الْبَطَالَةِ، وَارْتِفَاعِ الْمَنْزِلَةِ [٢].

وَمِنْ أَسْبَابِ تَضْيِيعِ الْوَقْتِ التَّسْوِيفُ وَالتَّأْمِيلُ وَالتَّمَنِّي.

قَالَ الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: مِنْ آدَابِ طَالِبِ الْعِلْمِ فِي نَفْسِهِ: أَنْ يُبَادِرَ شَبَابَهُ وَأَوْقَاتَ عُمُرِهِ إِلَى التَّحْصِيلِ، وَلَا يَغْتَرَّ بِخِدَاعِ التَّسْوِيفِ وَالتَّأْمِيلِ؛ فَإِنَّ كُلَّ سَاعَةٍ تَمْضِي مِنْ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَمِنْ عُمُرِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُبَدِّلَهَا، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُعَوَّضَ عَنْهَا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَقْطَعَ مَا يَقْدِرُ مِنَ الْعَلَائِقِ الشَّاغِلَةِ وَالْعَوَائِقِ الْمَانِعَةِ عَنْ تَمَامِ الطَّلَبِ وَبَذْلِ الِاجْتِهَادِ وَقُوَّةِ الْجِدِّ فِي التَّحْصِيلِ؛ فَإِنَّهَا كَقَوَاطِعِ الطَّرِيقِ [٣].

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْفَعُ مِنْ قِصَرِ الْأَمَلِ، وَلَا أَضَرُّ مِنَ التَّسْوِيفِ وَطُولِ

---

(١) «فَتْحُ الْبَارِي شَرْحُ صَحِيحِ الْبُخَارِي» (١/ ١٦٦).

(٢) «التِّبْيَانْ فِي آدَابِ حَمَلَةِ الْقُرْآنْ» (ص: ٥٠).

(٣) «تَذْكِرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمْ» (ص: ٧٠).

الْأَمَلِ[١].

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي مَنْزِلَةِ الْفِرَارِ**: أَيْ يَفِرُّ مِنْ إِجَابَةِ دَاعِي الْكَسَلِ إِلَى دَاعِي الْعَمَلِ وَالتَّشْمِيرِ بِالْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ. وَالْجِدُّ هَاهُنَا هُوَ صِدْقُ الْعَمَلِ، وَإِخْلَاصُهُ مِنْ شَوَائِبِ الْفُتُورِ، وَوُعُودِ التَّسْوِيفِ وَالتَّهَاوُنِ، وَهُوَ تَحْتَ (السِّينِ، وَسَوْفَ، وَعَسَى، وَلَعَلَّ)، فَهِيَ أَضَرُّ شَيْءٍ عَلَى الْعَبْدِ، وَهِيَ شَجَرَةٌ ثَمَرُهَا الْخُسْرَانُ وَالنَّدَامَاتُ[٢].

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ بَرْجَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: التَّسْوِيفُ وَالتَّمَنِّي دَاءَانِ خَطِيرَانِ، يُفْسِدَانِ الْقَلْبَ وَالْوَقْتَ، وَيَعْرُجَانِ بِالْمَرْءِ إِلَى عَالَمِ الْخَيَالِ.

أَمَّا التَّسْوِيفُ: فَصِفَةُ بَلِيدِ الْحِسِّ، عَدِيمِ الْمُبَالَاةِ، كُلَّمَا هَمَّتْ نَفْسُهُ بِخَيْرٍ عَاقَهَا بِـ(سَوْفَ، وَسَأَعْمَلُ) حَتَّى يَفْجَأَهُ الْمَوْتُ ﴿**فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ** ﴿١٠﴾﴾[المنافقون].

فَعَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَنَزَّهَ عَنْ هَذِهِ الْمَنْقَصَةِ، وَيُبَادِرَ بِالْأَعْمَالِ، عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ** ... ﴿٤٨﴾﴾[المائدة] ﴿**وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران].

فَهُوَ أَعْرَفُ النَّاسِ بِقِيمَةِ الْوَقْتِ، وَأَوْلَاهُمْ بِالِانْتِفَاعِ بِهِ كُلِّهِ[٣].

وَهَذَا التَّمَنِّي الْمَذْمُومُ الْمَمْنُوعُ ذَكَرَهُ العلامةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ، **فَقَالَ**: مِنْ مُفْسِدَاتِ الْقَلْبِ: رُكُوبُهُ بَحْرَ التَّمَنِّي، وَهُوَ بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ، وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي يَرْكَبُهُ مَفَالِيسُ الْعَالَمِ، كَمَا قِيلَ: إِنَّ الْمُنَى رَأْسُ أَمْوَالِ الْمَفَالِيسِ. وَبِضَاعَةُ رُكَّابِهِ مَوَاعِيدُ الشَّيْطَانِ، وَخَيَالَاتُ الْمُحَالِ وَالْبُهْتَانِ، فَلَا تَزَالُ أَمْوَاجُ الْأَمَانِي الْكَاذِبَةِ، وَالْخَيَالَاتُ الْبَاطِلَةُ، تَتَلَاعَبُ بِرَاكِبِهِ كَمَا تَتَلَاعَبُ الْكِلَابُ بِالْجِيفَةِ،

---

(١)«طريق الهجرتين» (ص:٢٧٤).

(٢)«مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» (١/ ٤٦٨).

(٣)«عَوَائِقُ الطَّلَبِ» (ص:٧٠).

وَهِيَ بِضَاعَةُ كُلِّ نَفْسٍ مَهِينَةٍ خَسِيسَةٍ سُفْلِيَّةٍ، لَيْسَتْ لَهَا هِمَّةٌ تَنَالُ بِهَا الْحَقَائِقَ الْخَارِجِيَّةَ، بَلِ اعْتَاضَتْ عَنْهَا بِالْأَمَانِي الذِّهْنِيَّةِ، وَكُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ مِنْ مُتَمَنٍّ لِلْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ، وَلِلضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ وَالتَّطْوَافِ فِي الْبُلْدَانِ، أَوْ لِلْأَمْوَالِ وَالْأَثْمَانِ، أَوْ لِلنِّسْوَانِ وَالْمُرْدَانِ، فَيُمَثِّلُ الْمُتَمَنِّي صُورَةَ مَطْلُوبِهِ فِي نَفْسِهِ وَقَدْ فَازَ بِوُصُولِهَا، وَالْتَذَّ بِالظَّفَرِ بِهَا، فَبَيْنَا هُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ إِذِ اسْتَيْقَظَ فَإِذَا يَدُهُ وَالْحَصِيرُ.

وَصَاحِبُ الْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ أَمَانِيهِ حَائِمَةٌ حَوْلَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَالْعَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُهُ إِلَى اللهِ، وَيُدْنِيهِ مِنْ جِوَارِهِ.

فَأَمَانِيُّ هَذَا إِيمَانٌ وَنُورٌ وَحِكْمَةٌ، وَأَمَانِيُّ أُولَئِكَ خُدَعٌ وَغُرُورٌ [1].

فَكَمَا أَنَّ التَّمَنِّيَ مِنْهُ الْمَذْمُومُ الْمَمْنُوعُ، فَمِنْهُ الْمَمْدُوحُ الْمَطْلُوبُ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: وَالتَّمَنِّي: تَفَعُّلٌ مِنَ الْأُمْنِيَةِ، وَالْجَمْعُ أَمَانِيُّ، **وَالتَّمَنِّي**: إِرَادَةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْمُسْتَقْبَلِ، فَإِنْ كَانَتْ فِي خَيْرٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِحَسَدٍ فَهِيَ مَطْلُوبَةٌ، وَإِلَّا فَهِيَ مَذْمُومَةٌ [2].

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ بَرْجَسٍ رَحِمَهُ اللهُ: يُشْتَرَطُ فِي **التَّمَنِّي الْمَمْدُوحِ** أَرْبَعَةُ شُرُوطٍ:

الْأَوَّلُ: كَوْنُهُ فِي حُدُودِ الشَّرْعِيَّاتِ.

الثَّانِي: الْعَجْزُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْعَمَلِ.

الثَّالِثُ: عَقْدُ الْعَزْمِ عَلَى الْفِعْلِ عِنْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ.

الرَّابِعُ: أَلَّا يَكُونَ التَّمَنِّي دَيْدَنَ الْمَرْءِ [3].

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: فَلْيَتَجَنَّبْ (أَيْ: طَالِبَ الْعِلْمِ) هَذَا الْمَرَضَ (أَيِ: التَّمَنِّيَ الْمَذْمُومَ)، وَلْيَحْذَرْ تَمَكُّنَهُ مِنْهُ،

---

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» (١/ ٤٥٦، ٤٥٧).

(٢) «فَتْحُ الْبَارِي شَرْحُ صَحِيحِ الْبُخَارِي» (١٣/ ٢١٧).

(٣) «رِسَالَةُ التَّمَنِّي»: (ص: ٢٠).

فَإِنَّهُ كَالسَّرَطَانِ الْفَتَّاكِ، قَلَّ مَنْ يَبْرَأُ مِنْهُ، فَكَمْ مِنْ صَرِيعٍ لَا يَفِيقُ مِنْ سُبَاتِهِ، وَلَا يَفْتَئِتُ مِنْ قُيُودِهِ، أَعَاذَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهُ، وَأَشْغَلَنَا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ عَنِ الْأَمَانِي الْكَاذِبَةِ وَالْخَيَالَاتِ الْكَاسِدَةِ، وَأَحْلَامِ الْيَقَظَةِ، التِّي تُضَيِّعُ الْوَقْتَ، وَتُخَفِّفُ الْمِيزَانَ.

وَسَاقَ أَبْيَاتًا مِنْ قَصِيدَةٍ لَهُ نَظَمَهَا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ:

وَاهًا لِأَيَّامِ الدِّرَاسَةِ إِنَّهَا..... تَكْسُو الْفُؤَادَ سَعَادَةً وَتُنَفِّسُ

وَالْمَرْءُ فِي زَمَنِ الصِّبَا مُتَوَثِّبٌ..... خَيْلًا تُغِيرُ عَلَى الْخَيَالِ وَتَنْهَسُ

حَتَى إِذَا بَلَغَ الْمَدَى وَتَكَشَّفَتْ..... أَحْلَامُهُ عَنْ سَوْءَةٍ لَا تُحْبَسُ

وَجَدَ الْمَعِيشَةَ صَعْبَةً لَا تُقْتَنَى..... بِالْأُمْنِيَاتِ وَلَا الزَّمَانَ يُؤَنِّسُ

فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ غَيْرَ أَوْدِيَةِ الْمُنَى فَالْعَطْبُ فِي وَادِي الْمُنَى يَتَرَأَّسُ اهـ[1].

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: فَاللهَ اللهَ فِي مَوَاسِمِ الْعُمْرِ! وَالْبِدَارَ الْبِدَارَ قَبْلَ الْفَوَاتِ! وَاسْتَشْهِدُوا الْعِلْمَ، وَاسْتَدِلُّوا الْحِكْمَةَ، وَنَافِسُوا الزَّمَانَ، وَنَاقِشُوا النُّفُوسَ، وَاسْتَظْهِرُوا بِالزَّادِ، فَكَأَنْ قَدْ حَدَا الْحَادِي فَلَمْ يُفْهَمْ صَوْتُهُ مِنْ وَقْعِ دَمْعِ النَّدَمِ[2].

وَقَالَ الشَّيْخُ مُوَفَّقُ الدِّينِ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللهُ **مُحَذِّرًا نَفْسَهُ التَّسْوِيفَ**[3]:

أَتَغْفَلُ يَا ابْنَ أَحْمَدَ وَالْمَنَايَا ..... شَوَارِعُ يَخْتَرِمْنَكَ عَنْ قَرِيبِ

أَغَرَّكَ أَنْ تَخَطَّتْكَ الرَّزَايَا ..... فَكَمْ لِلْمَوْتِ مِنْ سَهْمٍ مُصِيبِ

كُؤُوسُ الْمَوْتِ دَائِرَةٌ عَلَيْنَا ..... وَمَا لِلْمَرْءِ بُدٌّ من نَصِيبِ

إِلَى كَمْ تَجْعَلُ التَّسْوِيفَ دَأْبًا ..... أَمَا يَكْفِيكَ إِنْذَارُ الْمَشِيبِ

---

(١) «عَوَائِقُ الطَّلَبِ» (ص:٧٤).

(٢)«صَيْدُ الْخَاطِرِ» (ص:١٥٧).

(٣)«تَارِيخُ الْإِسْلَامِ» (١٣/ ٦٠١).

أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّكَ كُلَّ حِينٍ ..... تَمُرُّ بِقَبْرِ خِلٍّ أو حَبِيبِ

كَأَنَّكَ قَدْ لَحَقْتَ بِهِمْ قَرِيبًا ..... وَلَا يُغْنِيكَ إِفْرَاطُ النَّحِيبِ

فَلَا تُضَيِّعْ أَوْقَاتَكَ، وَاحْذَرْ خِدَاعَ الْأَمَانِي، وَغُرُورَ التَّسْوِيفِ، وَإِلْهَاءَ الْآمَالِ عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ.

وَمِسْكُ الْخِتَامِ قَوْلُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»[1].

٥- التواضع مع العلماء: التواضع مع العلماء سبيل لنيل ما عندهم من العلم، وهو منهج سلفي قديم، وإليك طرفًا من ذلك:

أ - قام ابن عباس رضي الله عنهما إلى زيد بن ثابت فأخذ له بركابه، فقال زيد رضي الله عنه: تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: إنا هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا [2].

ب - وعلى الدرب سار الإمام أحمد رحمه الله، قال الحسن بن العطار: رأيت أحمد بن حنبل يأخذ لداود بن عمرو بالرِّكاب [3].

جـ - قال إبراهيم بن الأشعث: رأيت سفيان بن عيينة يُقبِّل يد الفضيل بن عياض مرتين [4].

د - عن مغيرة قال: كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبة الأمير [5].

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيِّ بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»» (٧٢٣٥).

(٢) أخرجه الطبراني (٤٧٤٦)، وابن سعد (٣٦٠٢)، والحاكم (٣/ ٤٢٣) وصححه، وأقره الذهبي.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (الجزء الحادي عشر - ترجمة داود بن عمرو).

(٤) «المرجع السابق» (في ترجمة الإمام أحمد).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (الجزء الرابع - ترجمة إبراهيم النخعي).

هـ - قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: كنت أصفح الورقة بين يدي مالك صفحاً رفيقاً هيبة لئلا يسمع وقعها [١].

لابد لطالب أن يعرف لشيخه حقه، ولا ينس له فضله، ويحسن خطابه، ولا يُظهر علمَه بما يشرحه، قال عطاء: إن الشاب ليتحدث بحديث، فأسمع له كأني لم أسمعه، ولقد سمعته قبل أن يولد [٢].

ولا تسبق الشيخ إلى الجواب أو شرح مسألة، ولا تقطع عليه كلامه، واصبر على ما يقع منه، فكما قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في ديوانه:

اصْبِرْ عَلَى مُرِّ الْجَفَا مِنْ مُعَلِّمٍ ... فَإِنَّ رُسُوخَ الْعِلْمِ فِي نَفَرَاتِهِ

وَمَنْ لَمْ يَذُقْ مُرَّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً ... تَجَرَّعَ ذُلَّ الْجَهْلِ طُولَ حَيَاتِهِ

وَمَنْ فَاتَهُ التَّعْلِيمُ وَقْتَ شَبَابِهِ ... فَكَبِّرْ عَلَيْهِ أَرْبَعًا لِوَفَاتِهِ

وَذَاتُ الْفَتَى وَاللهِ بِالْعِلْمِ وَالتُّقَى ... إِذَا لَمْ يَكُونَا لَا اعْتِبَارَ لِذَاتِهِ

وإذا مشيت مع الشيخ فلتكن أمامه ليلًا، وخلفه نهاراً، إلا أن يقتضي الحال خلاف ذلك، كالزحام ونحوه، وتقدم عليه لتحميه من المواطئ المجهولة الحال، كوحل أو حوض، أو المواطئِ الخطرة.

وعليك أن تشكر شيخك على ما دلك عليه مما فيه فضيلة، وعلى توبيخه لك على ما فيه نقيصة.

ولا تطلبن عثرته، وإن زلَّ قَبِلْتَ معذرتَه، وعليك أن توقره لله تعالى، وإن كانت له حاجة سبقتَ القوم إلى خدمته، ولا تشبع من طول صحبته، فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يَسقط عليك منها شيء.

عَوَائِقُ فِي طَرِيقِ طَالِبِ الْعِلْمِ

(١) «آداب العالم المتعلم» (ص٤٦).

(٢) «مختصر تذكرة السامع والمتكلم» لرائد بن صبري بن أبي علفة (ص٥٨) طبعة التحف النفائس.

الْعِلْمَ تَعْتَرِيهِ بَعْضُ الْعَوَائِقِ الَّتِي تَصْرِفُ الْمَرْءَ عَنْهُ، حَرِيٌّ بِطَالِبِ الْعِلْمِ مَعْرِفَتُهَا لِيَجْتَنِبَهَا؛ فَيَنْهَلَ مِنْ مِيرَاثِ الْأَنْبِيَاءِ «الْعِلْمِ»، فَيَأْخُذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ، وَهَاكَ هَذِهِ الْعَوَائِقَ، عَافَانَا اللهُ وَإِيَّاكَ مِنْهَا.

الْأَوَّلُ: التَّسْوِيفُ: التَّسْوِيفُ هَادِمٌ لِلْعُمْرِ بِلَا فَائِدَةٍ، مُضَيِّعٌ لِلْوَقْتِ الثَّمِينِ بِلَا مَنْفَعَةٍ، وَمُفَوِّتٌ لِلْمَصَالِحِ بِلَا ثَمَرَةٍ، وَهُوَ الْمَانِعُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَعَالِي، فَلَابُدَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يَفِرَّ مِنْ وُعُودِهِ، وَهُوَ تَحْتَ (السِّينِ، وَسَوْفَ، وَعَسَى، وَلَعَلَّ)، فَهِيَ أَضَرُّ شَيْءٍ عَلَى الْعَبْدِ، وَهِيَ شَجَرَةٌ ثَمَرُهَا الْخُسْرَانُ وَالنَّدَامَةُ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مُخْتَصَرِ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ»: وَمَا مِثَالُ الْمُسَوِّفِ إِلَّا مِثَالُ مَنِ احْتَاجَ إِلَى قَلْعِ شَجَرَةٍ، فَرَآهَا قَوِيَّةً لَا تَنْقَطِعُ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، فَقَالَ: أُؤَخِّرُهَا سَنَةً ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهَا، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ الشَّجَرَةَ كُلَّمَا بَقِيَتِ ازْدَادَ رُسُوخُهَا، وَهُوَ كُلَّمَا طَالَ عُمُرُهُ ازْدَادَ ضَعْفُهُ، فَالْعَجَبُ مِنْ عَجْزِهِ مَعَ قُوَّتِهِ عَنْ مُقَاوَمَتِهَا فِي حَالِ ضَعْفِهَا، كَيْفَ يَنْظُرُ الْغَلَبَةَ إِذَا ضَعُفَ وَقَوِيَتْ؟!.

الثَّانِي: عَدَمُ تَلَقِّي الْعِلْمِ عَلَى الْأَشْيَاخِ، وَأَخْذُهُ مِنَ الصُّحُفِ.

يَغْتَرُّ بَعْضُ الطَّلَبَةِ فَيَرَى مِنْ نَفْسِهِ قُدْرَةً عَلَى أَخْذِ الْعِلْمِ مِنَ الْكُتُبِ دُونَ الرُّجُوعِ إِلَى الْعُلَمَاءِ فِي تَوْضِيحِ عِبَارَاتِهَا، وَحَلِّ مُشْكِلَاتِهَا، وَهَذَا دَاءٌ طَالَمَا رَأَيْنَا أَصْحَابَهُ صَرْعَى مَنْبُوذِينَ، وَعَنْ عِدَادِ أَهْلِ الْعِلْمِ مُبْعَدِينَ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ أَخْذَ الْعِلْمِ مِنْ بُطُونِ الْكُتُبِ دُونَ الرُّجُوعِ إِلَى الْعُلَمَاءِ مُنْزَلَقٌ خَطِيرٌ، وَهُوَ مُخَالِفٌ لِمَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ، وَصَحَّ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُنَا الصَّالِحُونَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: اجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُغَادِرْ مِنْهُنَّ امْرَأَةً، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِشْيَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي». فَأَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ فَاطِمَةُ، ثُمَّ إِنَّهُ سَارَّهَا فَضَحِكَتْ أَيْضًا، فَقُلْتُ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟

فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ، فَقُلْتُ لَهَا حِينَ بَكَتْ: أَخَصَّكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَدِيثِهِ دُونَنَا ثُمَّ تَبْكِينَ؟ وَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ، فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا قُبِضَ سَأَلْتُهَا **فَقَالَتْ: إِنَّهُ كَانَ حَدَّثَنِي أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَهُ بِهِ فِي الْعَامِ مَرَّتَيْنِ** ...».

وَفِي بَيَانِ فَضْلِ الْمَشْيِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ: أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ». وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاودَ، وَالْحَاكِمُ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رحمه الله، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَسْمَعُونَ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسْمَعُ مِنْكُمْ**».

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: سَأَلْنَا حُذَيْفَةَ رضي الله عنه عَنْ رَجُلٍ قَرِيبِ السَّمْتِ وَالْهَدْيِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى نَأْخُذَ عَنْهُ؟ فَقَالَ: مَا أَعْرِفُ أَحَدًا أَقْرَبَ سَمْتًا وَهَدْيًا وَدَلًّا بِالنَّبِيِّ ﷺ مِن ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ.

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَتْ لِي عَائِشَةُ رضي الله عنها: يَا ابْنَ أُخْتِي، بَلَغَنِي أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنهما مَارٌّ بِنَا إِلَى الْحَجِّ، فَالْقَهُ فَسَائِلْهُ، فَإِنَّهُ قَدْ حَمَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عِلْمًا كَثِيرًا، قَالَ: فَلَقِيتُهُ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ أَشْيَاءَ يَذْكُرُهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ عُرْوَةُ: فَكَانَ فِيمَا ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ مِنَ النَّاسِ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ، فَيَرْفَعُ الْعِلْمَ مَعَهُمْ، وَيُبْقِي فِي النَّاسِ رُؤُوسًا جُهَّالًا، يُفْتُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ».

قَالَ عُرْوَةُ: فَلَمَّا حَدَّثْتُ عَائِشَةَ بِذَلِكَ أَعْظَمَتْ ذَلِكَ وَأَنْكَرَتْهُ، قَالَتْ: أَحَدَّثَكَ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ هَذَا؟ قَالَ عُرْوَةُ: حَتَّى إِذَا كَانَ قَابِلٌ قَالَتْ لَهُ: إِنَّ ابْنَ عَمْرٍو قَدْ قَدِمَ فَالْقَهُ، ثُمَّ فَاتِحْهُ حَتَّى تَسْأَلَهُ عَنِ الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَهُ لَكَ فِي الْعِلْمِ، قَالَ: فَلَقِيتُهُ، فَسَأَلْتُهُ، فَذَكَرَهُ لِي نَحْوَ مَا حَدَّثَنِي بِهِ فِي مَرَّتِهِ الْأُولَى، قَالَ عُرْوَةُ: فَلَمَّا أَخْبَرْتُهَا بِذَلِكَ قَالَتْ: مَا أَحْسَبُهُ إِلَّا قَدْ صَدَقَ، أُرَاهُ لَمْ يَزِدْ فِيهِ شَيْئًا وَلَمْ

يَنْقُصْ.

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ»، عَنْ سَعِيدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: لَا يَزَالُ النَّاسُ صَالِحِينَ مُتَمَاسِكِينَ مَا أَتَاهُمُ الْعِلْمُ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمِنْ أَكَابِرِهِمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ مِنْ أَصَاغِرِهِمْ هَلَكُوا».

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي «مُقَدِّمَةِ صَحِيحِهِ»، عَنِ ابْنِ سِيرِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: لَمْ يَكُونُوا يَسْأَلُونَ عَنِ الْإِسْنَادِ، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ قَالُوا: سَمُّوا لَنَا رِجَالَكُمْ، فَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ فَيُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ، وَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ الْبِدَعِ فَلَا يُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ.

وَأَخْرَجَ عَنْهُ أَيْضًا، قَالَ: إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ، فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ.

وَأَخْرَجَ ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ «الجرح والتعديل»، والرامهُرْمزي في «المحدث الفاصل» عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: كَانَ يُقَالُ: «لَا تَقْرَءُوا الْقُرْآنَ عَلَى الْمُصْحَفِيِّينَ، وَلَا تَحْمِلُوا الْعِلْمَ عَنِ الصُّحُفِيِّينَ».

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْحِكَمِ الْجَدِيرَةِ بِالْإِذَاعَةِ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ»: يَا لِلَّهِ لِلْعَجَبِ! لَوِ ادَّعَى مَعْرِفَةَ صِنَاعَةٍ مِنْ صَنَائِعِ الدُّنْيَا - وَلَمْ يَعْرِفْهُ النَّاسُ بِهَا، وَلَا شَاهَدُوا عِنْدَهُ آلَاتِهَا - لَكَذَّبُوهُ فِي دَعْوَاهُ، وَلَمْ يَأْمَنُوهُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَلَمْ يُمَكِّنُوهُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهَا مَا يَدَّعِيهِ مِنْ تِلْكَ الصِّنَاعَةِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَدَّعِي مَعْرِفَةَ أَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَا شُوهِدَ قَطُّ يَكْتُبُ عِلْمَ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَا يُجَالِسُ أَهْلَهُ، وَلَا يُدَارِسُهُ؟ فَيَا لِلَّهِ لِلْعَجَبِ! كَيْفَ يَقْبَلُ أَهْلُ الْعَقْلِ دَعْوَاهُ، وَيُحَكِّمُونَهُ فِي أَدْيَانِهِمْ، يُفْسِدُهَا بِدَعْوَاهُ الْكَاذِبَةِ؟

صَدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَإِذَا كَانَتِ الصَّنَائِعُ لَابُدَّ مِنْ أَخْذِهَا عَلَى أَهْلِهَا، فَكَيْفَ بِالْعِلْمِ؟!!

وَقَدْ قِيلَ:

يَظُنُّ الغُمْـرُ أنَّ الكُتْبَ تَهْدِي ... أَخَا فَهْـمٍ لِإِدْرَاكِ الْعُـلُـومِ

وَمَا يَدْرِي الْجَهُـولُ بِأَنَّ فِيهَا غَوَامِضَ حَيَّرَتْ عَقْلَ الْفَهِيـمِ

إِذَا رُمْتَ الْعُلُـومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ ضَلَلْتَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ

وَتَلْتَبِسُ الْعُلُـومُ عَلَيْكَ حَتَّى تَصِيرَ أَضَلَّ مِنْ تُومَا الْحَكِيـمِ

ذَكَرَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «السِّيَرِ»، عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: كَانَ هَذَا الْعِلْمُ كَرِيمًا، يَتَلَاقَاهُ الرِّجَالُ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا دَخَلَ فِي الْكُتُبِ، دَخَلَ فِيهِ غَيْرُ أَهْلِهِ.

قَالَ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِسْعَافِ الْمُبَطَّأِ بِرِجَالِ الْمُوَطَّأِ»: قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ الْفَرَوِيِّ: **سُئِلَ مَالِكٌ** رَحِمَهُ اللَّهُ: **أَيُؤْخَذُ الْعِلْمُ عَمَّنْ لَيْسَ لَهُ طَلَبٌ وَلَا مُجَالَسَةٌ؟ فَقَالَ: لَا**. فَقِيلَ: أَيُؤْخَذُ مِمَّنْ هُوَ صَحِيحٌ ثِقَةٌ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَحْفَظُ وَلَا يَفْهَمُ مَا يُحَدِّثُ؟ فَقَالَ: **لَا يُكْتَبُ الْعِلْمُ إِلَّا مِمَّنْ يَحْفَظُ، وَيَكُونُ قَدْ طَلَبَ وَجَالَسَ النَّاسَ**، وَعَرِفَ وَعَمِلَ وَيَكُونُ مَعَهُ وَرَعٌ.

وَقَالَ الْإِمَامُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «دِيوَانِهِ»:

أَخِي لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلَّا بِستَّـةٍ سَأُنْبِيكَ عَنْ تَفْصِيلِـهَا بِبَـيَانِ

ذَكَاءٌ وَحِرْصٌ وَاجْتِهَادٌ وَبُلْغَةٌ وَصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وَطُولُ زَمَـانِ

وَذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ»، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الشَّيْبَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: الْحِكَايَاتُ عَنِ الْعُلَمَاءِ وَمِجَالَسَتُهُمْ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْفِقْهِ؛ لِأَنَّهَا آدَابُ الْقَوْمِ وَأَخْلَاقُهُمْ.

وَذَكَرَ أَيْضًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: كُنَّا نَأْتِي مَسْرُوقًا، فَنَتَعَلَّمُ مِنْ هَدْيِهِ وَدَلِّهِ.

وَذَكَرَ أَيْضًا عَنْ شَرِيكِ بْنِ نَهِيكٍ الْخَوْلَانِيِّ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ مَمْشَاهُ وَمُدْخَلُهُ وَمُخْرَجُهُ مَعَ أَهْلِ الْعِلْمِ.

إِنَّ الْعُلَمَاءَ مَعَهُمُ الْمَفَاتِيحُ الَّتِي تُفْتَحُ بِهَا مَغَالِيقُ الْكُتُبِ، فَلَابدَّ مِنَ التَّلَقِّي عَلَى الْعُلَمَاءِ لِبُلُوغِ الْعِلْمِ، وَمُلَازَمَةُ الْعَالِمِ لَا تَكُونُ أُسْبُوعًا أَوْ شَهْرًا وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا مُلَازَمَةَ الْمُسْتَفِيدِ، لَا الرَّاغِبِ فِي

الْحُصُولِ عَلَى التَّزْكِيَاتِ بَعْدَ شَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ؛ رَغْبَةً فِي شَهْوَةِ التَّصَدُّرِ.

ذَكَرَ ابْنُ جَمَاعَةٍ الْكِنَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَذْكِرَةِ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ» عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: مَنْ تَفَقَّهَ مِنْ بُطُونِ الْكُتُبِ ضَيَّعَ الْأَحْكَامَ.

وَأَخْرَجَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي «نَصِيحَةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ»، عَنْ وَكِيعِ بْنِ الْجَرَّاحِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: لَا بُدَّ لِلْمُتَفَقِّهِ مِنْ أُسْتَاذٍ يَدْرُسُ عَلَيْهِ، وَيَرْجِعُ فِي تَفْسِيرِ مَا أَشْكَلَ إِلَيْهِ، وَيَتَعَرَّفُ مِنْهُ طُرُقَ الِاجْتِهَادِ، وَمَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الصِّحَّةِ وَالْفَسَادِ.

وَأَخْرَجَ أَيْضًا: أَنَّهُ قِيلَ لِأَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ: فِي الْمَسْجِدِ حَلْقَةٌ يَنْظُرُونَ فِي الْفِقْهِ. فَقَالَ: لَهُمْ رَأْسٌ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: لَا يَفْقَهُ هَؤُلَاءِ أَبَدًا.

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ سَفْيَانَ الْحَكَمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «أُرْجُوزَةِ الْآدَابِ»:

وَالْأَخْذُ عَنْ شَيْخٍ مُشَارِكٍ أَتَمّ ... نَفْعًا لِطُلَّابِ الْعُلُومِ وَأَعَمّ

مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شُيُوخٌ اجْتَنِب ... أَخْذَكَ عَنْهُ لَا تَكُنْ كَالْمُحْتَطِبْ

إِذْ مِنْ بُطُونِ الْكُتْبِ قَدْ تَفَقَّهَا ... كَمَا يَقُولُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ ذُو النُّهَى

مَنْ دَخَلَ الْكُتُبَ وَحْدَهُ خَرَجْ ... مِنْهَا وُقِيتَ وَحْدَهُ كَمَا وَلَجْ

لَا تَأْخُذِ الْقُرْآنَ عَمَّنْ أَخَذَا ... عَنْ مُصْحَفِيٍّ مِثْلِهِ فَإِنَّ ذَا

كَالْأَخْذِ عَنْ كُلِّ جَهُولٍ صَحَفِي ... مُصَحِّفٍ كَمَا تَلَا فِي الصُّحُفِ

وَلْتَثْنِ رُكْبَتَيْكَ فِي الْمَسَاجِد ... مُزَافِنًا لِكُلِّ شَيْخٍ مَاجِدِ

لَقَدْ لَازَمَ الشَّيْخُ حُمُودٌ التُّوِيجِرِيُّ شَيْخَهُ عَبْدَ اللهِ الْعَنْقَرِيَّ رَحِمَهُمَا اللهُ **مُدَّةً تَزِيدُ عَلَى خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً**.

وَكَذَا الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ قَاسِمٍ مَعَ شَيْخِهِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ رَحِمَهُمَا اللهُ.

وَمِمَّنْ لَازَمَ شَيْخَهُ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً:

الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ مَعَ شَيْخِهِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُمَا اللهُ.

وَالشَّيْخُ عَبْدُ اللهِ الْعَقِيلُ مَعَ شَيْخِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُمَا اللهُ.

وَالشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَحْمَانَ مَعَ شَيْخِهِ حَمَدِ بْنِ عَتِيقٍ رَحِمَهُمَا اللهُ.

وَشَيْخُنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ الرَّاجِحِيُّ حَفِظَهُ اللهُ، سَأَلْتُهُ: كَمْ لَازَمْتَ سَمَاحَةَ الشَّيْخِ عَبْدَ الْعَزِيزِ ابْنَ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ؟

فَقَالَ حَفِظَهُ اللهُ: عِشْرُونَ سَنَةً، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَنَقَلَ لِي بَعْضُ مَنْ أَثِقُ بِهِ: أَنَّهُ سَمِعَ مِنَ الشَّيْخِ أَنَّهُ دَرَسَ عَلَى الشَّيْخِ ابْنِ بَازٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

وَأَمَّا الِاسْتِمْرَارُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ:

فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَارِيخِ دِمَشْقَ»، عَنْ أَبِي وَهْبِ بْنِ مُحَمَّدِ ابْنِ مُزَاحِمٍ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ عَبْدَ اللهِ - يَعْنِي ابْنَ الْمُبَارَكِ - قِيلَ لَهُ بِالشَّامِ: إِلَى كَمْ تَطْلُبُ هَذَا الْعِلْمَ؟ قَالَ: أَرْجُو أَنْ تَرَوْنِي فِيهِ إِلَى أَنْ أَمُوتَ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي يَعْلَى فِي «طَبَقَاتِ الْحَنَابِلَةِ» عَنْ أَبِي بَكْرٍ الْخَلَّالِ قَالَ: قُلْتُ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ: إِلَى مَتَى يَكْتُبُ الرَّجُلُ؟ قَالَ: حَتَّى يَمُوتَ.

الثَّالِثُ: التَّصَدُّرُ قَبْلَ التَّأَهُّلِ.

إِنَّ حُبَّ التَّصَدُّرِ وَالشُّهْرَةِ مِنْ أَشَدِّ الْعَوَائِقِ عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ، وَهَذَا الدَّاءُ لَهُ عَلَامَاتٌ يَجِبُ تَوَقِّيهَا، وَالْحَذَرُ مِنْهَا، وَمِنْ ذَلِكَ: تَزْكِيَةُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: أَيْ: تَمْدَحُوهَا، وَتَشْكُرُوهَا، وَتُمَنُّوا بِأَعْمَالِكُمْ.

إِنَّ تَزْكِيَةَ النَّفْسِ بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ خُلُقٌ ذَمِيمٌ، وَمَزْلَقٌ خَطِيرٌ، يُورِدُ صَاحِبَهُ مَوَارِدَ مُهْلِكَةً، مِنَ الْغُرُورِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، والِاسْتِنْكَـافِ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، وَيُورِثُهُ الْحَسَدَ، وَالْكِبْرَ، وَكُلُّهَا مِنْ مُفْسِدَاتِ الْقَلْبِ.

إِنَّ حُبَّ الشُّهْرَةِ مِمَّا يَحْمِلُ الْعَبْدَ عَلَى التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيِ الْعُلَمَاءِ عُمُومًا، وَفِي مَجَالِسِهِمْ خُصُوصًا.

أَمَّا فِي مَجَالِسِهِمْ خُصُوصًا، فَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ ابْنُ جَمَاعَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَذْكِرَةِ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ»: إِذَا سَمِعَ الشَّيْخَ يَذْكُرُ حُكْمًا فِي مَسْأَلَةٍ، أَوْ فَائِدَةً مُسْتَغْرَبَةً، أَوْ يَحْكِي حِكَايَةً، أَوْ يُنْشِدُ شِعْرًا وَهُوَ يَحْفَظُ

ذَلِكَ، أَصْغَى إِلَيْهِ إِصْغَاءَ مُسْتَفِيدٍ لَهُ فِي الْحَالِ، مُتَعَطِّشٍ إِلَيْهِ، فَرِحٍ بِهِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ قَطُّ.

قَالَ عَطَاءٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنِّي لَأَسْمَعُ الْحَدِيثَ مِنَ الرَّجُلِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُ، فَأُرِيهِ مِنْ نَفْسِي أَنِّي لَا أُحْسِنُ مِنْهُ شَيْئًا.

وَعَنْهُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: إِنَّ الشَّابَ لَيَتَحَدَّثُ بِحَدِيثٍ فَأَسْمَعُ لَهُ كَأَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ.

فَعَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ أَلَّا يَقْطَعَ عَلَى الشَّيْخِ كَلَامَهُ، وَأَلَّا يُسَابِقَهُ، وَأَلَّا يَتَحَدَّثَ مَعَ غَيْرِهِ وَالشَّيْخُ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ أَوْ مَعَ جَمَاعَةِ الْمَجْلِسِ.

أَمَّا التَّقَدُّمُ بَيْنَ يَدَيِ الْعُلَمَاءِ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ، فَقَدْ قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ»: قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى رَحِمَهُ اللَّهُ: أَدْرَكْتُ مِائَةً وَعِشْرِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يُسْأَلُ أَحَدُهُمُ الْمَسْأَلَةَ، فَيَرُدُّهَا هَذَا إِلَى هَذَا، وَهَذَا إِلَى هَذَا، حَتَى تَرْجِعَ إِلَى الْأَوَّلِ، مَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْفُتْيَا.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ أَفْتَى النَّاسَ فِي كُلِّ مَا يَسْتَفْتُونَهُ فَهُوَ مَجْنُونٌ.

وَقَالَ حُصَيْنٌ الْأَسَدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُفْتِي فِي الْمَسْأَلَةِ لَوْ وَرَدَتْ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لَجَمَعَ لَهَا أَهْلَ بَدْرٍ. وَعَنِ الْحَسَنِ وَالشَّعْبِيِّ مِثْلُهُ.

وَقَالَ الْحَاكِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الصَّفَّارَ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَجْلَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: إِذَا أَخْطَأَ الْعَالِمُ لَا أَدْرِي أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ. وَرُوِيَ ذَلِكَ بِنَحْوِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَذَكَرَ الْحَافِظُ أَبُو عُمَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ جَاءَهُ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَقَالَ الْقَاسِمُ: لَا أُحْسِنُهُ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَقُولُ: إِنِّي دُفِعْتُ إِلَيْكَ لَا أَعْرِفُ غَيْرَكَ، فَقَالَ الْقَاسِمُ: لَا تَنْظُرْ إِلَى طُولِ لِحْيَتِي، وَكَثْرَةِ النَّاسِ حَوْلِي، وَاللهِ مَا أُحْسِنُهُ، فَقَالَ شَيْخٌ مِنْ قُرَيْشٍ جَالِسٌ إِلَى جَنْبِهِ: يَا ابْنَ أَخِي الْزَمْهَا، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُكَ فِي مَجْلِسٍ أَنْبَلَ مِنْكَ الْيَوْمَ، فَقَالَ الْقَاسِمُ: وَاللهِ لَأَنْ يُقْطَعَ لِسَانِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِمَا لَا عِلْمَ لِي بِهِ.

وَذَكَرَ الْحَافِظُ أَبُو عُمَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ ابْنِ عُيَيْنَةَ وَسُحْنُونَ رَحِمَهُمَا اللهُ أَنَّهُمَا قَالَا: أَجْسَرُ النَّاسِ عَلَى الْفُتْيَا أَقَلُّهُمْ عِلْمًا.

وَكَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: مَنْ أَجَابَ فِي مَسْأَلَةٍ فَيَنْبَغِي مِنْ قَبْلِ أَنْ يُجِيبَ فِيهَا أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ، وَكَيْفَ يَكُونُ خَلَاصُهُ فِي الْآخِرَةِ.

وَسُئِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَقَالَ: لَا أَدْرِي، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا مَسْأَلَةٌ خَفِيفَةٌ سَهْلَةٌ، فَغَضِبَ، وَقَالَ: لَيْسَ فِي الْعِلْمِ شَيْءٌ خَفِيفٌ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾. فَالْعِلْمُ كُلُّهُ ثَقِيلٌ وَخَاصَّةً مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَصْعُبُ عَلَيْهِمُ الْمَسَائِلُ، وَلَا يُجِيبُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ مَسْأَلَةٍ حَتَّى يَأْخُذَ رَأْيَ صَاحِبِهِ، مَعَ مَا رُزِقُوا مِنَ السَّدَادِ وَالتَّوْفِيقِ وَالطَّهَارَةِ، فَكَيْفَ بِنَا الَّذِينَ غَطَّتِ الذُّنُوبُ وَالْخَطَايَا قُلُوبَنَا.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى مَالِكٍ، يَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ أَيَّامًا مَا يُجِيبُهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا

عَبْدِ اللهِ إِنِّي أُرِيدُ الْخُرُوجَ، وَقَدْ طَالَ التَّرَدُّدُ إِلَيْكَ، فَأَطْرَقَ طَوِيلًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: مَا شَاءَ اللهُ، يَا هَذَا إِنِّي إِنَّمَا أَتَكَلَّمُ فِيمَا أَحْتَسِبُ فِيهِ الْخَيْرَ، وَلَسْتُ أُحْسِنُ مَسْأَلَتَكَ هَذِهِ.

وَسُئِلَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَسَكَتَ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَا تُجِيبُ يَرْحَمُكَ اللهُ؟ فَقَالَ: حَتَّى أَدْرِي الْفَضْلَ فِي سُكُوتِي أَوْ فِي الْجَوَابِ.

وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ رَحِمَهُ اللهُ لَا يَكَادُ يُفْتِي فُتْيًا، وَلَا يَقُولُ شَيْئًا إِلَّا قَالَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي، وَسَلِّمْ مِنِّي.

وَقَالَ سُحْنُونُ رَحِمَهُ اللهُ: أَشْقَى النَّاسِ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ، وَأَشْقَى مِنْهُ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ، فَقَالَ: تَفَكَّرْتُ فِيهِ، وَجَدْتُهُ الْمُفْتِيَ يَأْتِيهِ الرَّجُلُ قَدْ حَنِثَ فِي امْرَأَتِهِ وَرَقِيقَتِهِ، فَيَقُولُ لَهُ: لَا شَيْءَ عَلَيْكَ، فَيَذْهَبُ الْحَانِثُ، فَيَسْتَمْتِعُ بِامْرَأَتِهِ وَرَقِيقَتِهِ، وَقَدْ بَاعَ الْمُفْتِي دِينَهُ بِدُنْيَا هَذَا.

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى سُحْنُونَ رَحِمَهُ اللهُ يَسْأَلُهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَأَقَامَ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَقَالَ: مَسْأَلَتِي أَصْلَحَكَ اللهُ، الْيَوْمَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَقَالَ لَهُ: وَمَا أَصْنَعُ بِمَسْأَلَتِكَ؟ مَسْأَلَتُكَ مُعْضِلَةٌ، وَفِيهَا أَقَاوِيلُ، وَأَنَا مُتَحَيِّرٌ فِي ذَلِكَ. فَقَالَ: وَأَنْتَ أَصْلَحَكَ اللهُ لِكُلِّ مُعْضِلَةٍ، فَقَالَ سُحْنُونُ: هَيْهَاتَ يَا ابْنَ أَخِي، لَيْسَ بِقَوْلِكَ هَذَا أَبْذُلُ لَحْمِي وَدَمِي لِلنَّارِ، وَمَا أَكْثَرَ مَا لَا أَعْرِفُ!! إِنْ صَبَرْتَ رَجَوْتُ أَنْ تَنْقَلِبَ بِمَسْأَلَتِكَ، وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَمْضِيَ إِلَى غَيْرِي فَامْضِ تُجَابُ فِي مَسْأَلَتِكَ فِي سَاعَةٍ، فَقَالَ: إِنَّمَا جِئْتُ إِلَيْكَ، وَلَا أَسْتَفْتِي غَيْرَكَ، قَالَ: فَاصْبِرْ، ثُمَّ أَجَابَهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَقِيلَ لَهُ رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّكَ تُسْأَلُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ لَوْ سُئِلَ عَنْهَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ لَأَجَابَ فِيهَا، فَتَتَوَقَّفُ فِيهَا؟ فَقَالَ: إِنَّ فِتْنَةَ الْجَوَابِ بِالصَّوَابِ أَشَدُّ مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: قَلَّ مَنْ حَرَصَ عَلَى الْفَتْوَى، وَسَابَقَ إِلَيْهَا، وَثَابَرَ عَلَيْهَا، إِلَّا قَلَّ تَوْفِيقُهُ، وَاضْطَرَبَ فِي أَمْرِهِ، وَإِنْ كَانَ كَارِهًا لِذَلِكَ، غَيْرَ مُخْتَارٍ لَهُ، مَا وَجَدَ مَنْدُوحَةً عَنْهُ، وَقَدَرَ أَنْ يُحِيلَ بِالْأَمْرِ فِيهِ إِلَى غَيْرِهِ، كَانَتِ الْمَعُونَةُ لَهُ مِنَ اللهِ أَكْثَرَ، وَالصَّلَاحُ فِي جَوَابِهِ وَفَتَاوِيهِ أَغْلَبَ.

وَقَالَ بِشْرٌ الْحَافِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْأَلَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسْأَلَ.

وَذَكَرَ الْحَافِظُ أَبُو عُمَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «أَخْبَرَنِي رَجُلٌ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى رَبِيعَةَ، فَوَجَدَهُ يَبْكِي، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ؟ أَمُصِيبَةٌ دَخَلَتْ عَلَيْكَ؟ وَارْتَاعَ لِبُكَائِهِ، فَقَالَ: لَا وَلَكِنِ اسْتُفْتِيَ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ، وَظَهَرَ فِي الْإِسْلَامِ أَمْرٌ عَظِيمٌ.

قَالَ رَبِيعَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلَبَعْضُ مَنْ يُفْتِي هَاهُنَا أَحَقُّ بِالْحَبْسِ مِنَ السُّرَّاقِ.

إِنَّ حُبَّ الشُّهْرَةِ مِمَّا يَحْمِلُ الْعَبْدَ عَلَى الْحَسَدِ، وَالْحَسَدُ: تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنِ الْغَيْرِ، ذَاكَ الْخُلُقُ الَّذِي يَحْلِقُ الدِّينَ. أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ، الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَاكُمْ لَكُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ».

وَأَخْرَجَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ»، عَنِ الْفُضَيْلِ ابْنِ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: مَا مِنْ أَحَدٍ أَحَبَّ الرِّئَاسَةَ إِلَّا حَسَدَ، وَبَغَى، وَتَتَبَّعَ عُيُوبَ النَّاسِ، وَكَرِهَ أَنْ يُذْكَرَ أَحَدٌ بِخَيْرٍ.

الرَّابِعُ: عَدَمُ التَّدَرُّجِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ:

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الشَّبَابِ يُمْضِي السَّنَوَاتِ الطِّوَالَ دُونَ أَنْ يُحَصِّلَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا نُتَفًا يَسِيرَةً؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُرَاعِ الْمَنْهَجِيَّةَ الصَّحِيحَةَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فَتَرَاهُ مُتَعَجِّلًا، هَاجِمًا عَلَى الْعِلْمِ، دُونَ تُؤَدَةٍ وَأَنَاةٍ، وَقَدْ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ [آل عمران: ٧٩].

قَالَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾: «حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ، وَيُقَالُ: **الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ**».

لَا شَكَّ أَنَّ التَّدَرُّجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ مِنْ أَهَمِّ مَعَالِمِ مَنْهَجِ السَّلَفِ، بَلْ هُوَ سُنَّةٌ شَرْعِيَّةٌ وَكَوْنِيَّةٌ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

قَالَ الْعَلَّامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَيْسِيرِ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ»: ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾: عَلَى مَهَلٍ؛ لِيَتَدَبَّرُوهُ، وَيَتَفَكَّرُوا فِي مَعَانِيهِ، وَيَسْتَخْرِجُوا عُلُومَهُ.

أَخْرَجَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ»: عَنْ يُونُسَ بْنِ يَزِيدَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ شِهَابٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: يَا يُونُسُ، لَا تُكَابِرِ الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ أَوْدِيَةٌ، فَأَيُّهَا أَخَذْتَ فِيهِ قَطَعَ بِكَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَهُ، **وَلَكِنْ خُذْهُ مَعَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، وَلَا تَأْخُذِ الْعِلْمَ جُمْلَةً؛ فَإِنَّ مَنْ رَامَ أَخْذَهُ جُمْلَةً ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةً، وَلَكِنِ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ مَعَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ.**

إِنَّ مَنْ فَقَدَ التَّدَرُّجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَتَعَجَّلَ النِّهَايَاتِ، يُحْرَمُ الْوُصُولَ، فَلَا يَصِلُ إِلَى مُرَادِهِ، كَمَا أَنَّ الْعَاجِزَ وَضَعِيفَ الْهِمَّةِ - مِمَّنْ يَجْعَلُ التَّدَرُّجَ مُتَّكَأً تَبْرِيرِيًّا؛ لِيُبَرِّرَ بِهِ تَأَخُّرَهُ فِي التَّحْصِيلِ، وَتَخَلُّفَهُ فِي الْعِلْمِ - لَنْ يَصِلَ كَذَلِكَ.

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو عُمَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ»: وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

وَكُلُّ عِلْمٍ غَامِضٍ رَفِيعِ ... فَإِنَّهُ بِالْمَوْضِعِ الْمَنِيعِ

لَا يُرْقَى إِلَيْهِ إِلَّا عَنْ دَرَجْ ... مِنْ دُونِهَا بَحْرٌ طَمُوحٌ وَلُجَجْ

وَلَا يَنَالُ ذُرْوَةَ الْغَايَاتِ ... إِلَّا عَلِيمٌ بِالْمُقَدِّمَاتِ

وَمِنَ اللَّطَائِفِ فِي ذَلِكَ: مَا ذَكَرَهُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْجَامِعِ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ»، عَنِ الْفَضْلِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَلْمٍ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَطْلُبُ الْعِلْمَ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَعَزَمَ عَلَى تَرْكِهِ، فَمَرَّ بِمَاءٍ يَنْحَدِرُ مِنْ رَأْسِ جَبَلٍ عَلَى صَخْرَةٍ قَدْ أَثَّرَ الْمَاءُ فِيهَا، فَقَالَ: الْمَاءُ عَلَى لَطَافَتِهِ قَدْ أَثَّرَ فِي صَخْرَةٍ عَلَى كَثَافَتِهَا! وَاللهِ لَأَطْلُبَنَّ الْعِلْمَ، فَطَلَبَ فَأَدْرَكَ.

وَقَالَ ابْنُ بَدْرَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْمَدْخَلِ إِلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ»: اعْلَمْ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَقْضُونَ السِّنِينَ الطِّوَالَ فِي تَعَلُّمِ الْعِلْمِ، بَلْ فِي عِلْمٍ وَاحِدٍ، وَلَا يَحْصُلُونَ مِنْهُ عَلَى طَائِلٍ، وَرُبَّمَا قَضَوْا أَعْمَارَهُمْ فِيهِ وَلَمْ يَرْتَقُوا عَنْ دَرَجَةِ الْمُبْتَدِئِينَ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَدَمُ الذَّكَاءِ الْفِطْرِيِّ، وَانْتِفَاءُ الْإِدْرَاكِ التَّصَوُّرِيِّ، وَهَذَا لَا كَلَامَ لَنَا فِيهِ، وَلَا فِي عِلَاجِهِ.

وَالثَّانِي: الْجَهْلُ بِطُرُقِ التَّعْلِيمِ، وَهَذَا قَدْ وَقَعَ فِيهِ غَالِبُ الْمُعَلِّمِينَ، فَتَرَاهُمْ يَأْتِي إِلَيْهِمُ الطَّالِبُ الْمُبْتَدِئُ لِيَتَعَلَّمَ النَّحْوَ مَثَلًا، فَيُشْغِلُونَهُ بِالْكَلَامِ عَلَى الْبَسْمَلَةِ، ثُمَّ عَلَى الْحَمْدَلَةِ أَيَّامًا، بَلْ شُهُورًا؛ لِيُوهِمُوهُ سَعَةَ مَدَارِكِهِمْ، وَغَزَارَةَ عِلْمِهِمْ، ثُمَّ إِذَا قُدِّرَ لَهُ الْخَلَاصُ مِنْ ذَلِكَ أَخَذُوا يُلَقِّنُونَهُ مَتْنًا أَوْ شَرْحًا بِحَوَاشِيهِ وَحَوَاشِي حَوَاشِيهِ، وَيَحْشُرُونَ لَهُ خِلَافَ الْعُلَمَاءِ، وَيَشْغَلُونَهُ بِكَلَامِ مَنْ رَدَّ عَلَى الْقَائِلِ، وَمَا أُجِيبَ بِهِ عَنِ الرَّدِّ، وَلَا يَزَالُونَ يَضْرِبُونَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ الْوَتَرِ حَتَّى يَرْتَكِزَ فِي ذِهْنِهِ أَنَّ نَوَالَ هَذَا الْفَنِّ مِنْ قَبِيلِ الصَّعْبِ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا مَنْ أُوتِيَ الْوَلَايَةَ، وَحَضَرَ مَجْلِسَ الْقُرْبِ وَالِاخْتِصَاصِ، هَذَا إِذَا كَانَ الْمُلَقِّنُ يَفْهَمُ ظَاهِرًا مِنْ عِبَارَاتِ الْمُصَنِّفِينَ. وَأَمَّا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّغَفِ بِالرُّسُومِ، أُشِيرَ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ عَالِمٌ. فَمَوَّهَ عَلَى النَّاسِ، وَأَنْزَلَ نَفْسَهُ مَنْزِلَةَ الْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ، وَجَلَسَ لِلتَّعْلِيمِ، فَيَأْتِيهِ الطَّالِبُ بِكِتَابٍ مُطَوَّلٍ أَوْ مُخْتَصَرٍ، فَيَتَلَقَّاهُ مِنْهُ سَرْدًا لَا يَفْتَحُ لَهُ مِنْهُ مُغْلَقًا، وَلَا يَحُلُّ لَهُ طَلْسَمًا، فَإِذَا سَأَلَهُ ذَلِكَ الطَّالِبُ الْمِسْكِينُ عَنْ حَلِّ مُشْكِلٍ، انْتَفَخَ أَنْفُهُ وَوَرِمَ، وَقَابَلَهُ بِالسَّبِّ وَالشَّتْمِ، وَنَسَبَهُ إِلَى الْبَهَائِمِ، وَرَمَاهُ بِالزَّنْدَقَةِ، وَأَشَاعَ عَنْهُ أَنَّهُ يَطْلُبُ الِاجْتِهَادَ.

وَمِمَّا يُعَارِضُ التَّدَرُّجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ:

أ- الْحِرْصُ عَلَى الِاسْتِطْرَادِ فِي فُرُوعِ الْعِلْمِ فِي ابْتِدَاءِ الطَّلَبِ:

إِنَّ ضَبْطَ الْأُصُولِ قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي الْفُرُوعِ، وَالتَّرْكِيزَ وَإِتْقَانَ مَتْنٍ مُخْتَصَرٍ قَبْلَ الْغَوْصِ فِي تَفَارِيعِ التَّصَانِيفِ مِمَّا يُمَتِّنُ صَاحِبَهُ فِي الْعِلْمِ.

ب- حِرْصُ الْمُبْتَدِئِ عَلَى الْمَجَالِسِ الَّتِي تُعْنَى بِالتَّفْصِيلِ الْكَثِيرِ:

فَيَقْطَعُ الْفَيَافِيَ وَالْأَوْقَاتَ؛ حِرْصًا عَلَى التَّتَلْمُذِ عَلَى الْعَالِمِ الْمُسْهِبِ فِي الشُّرُوحِ، وَهَذَا يُضَيِّعُ وَقْتَهُ، وَيُغَرُّ بِنَفْسِهِ.

لَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ عُلَمَائِنَا وَمَشَايِخِنَا مَنْ لَا يُعَلِّقُ عَلَى الْمَتْنِ إِلَّا بِكَلِمَاتٍ يَسِيرَةٍ، أَوِ اسْتِشْكَالٍ بَسِيطٍ يُثِيرُ

ذِهْنَ الطَّالِبِ، وَلَا يُخْرِجُهُ عَنْ رُوحِ الْكِتَابِ وَلُبِّهِ، وَإِنَّمَا يُثِيرُ مَسَائِلَ بَسِيطَةً عَلَى الْكِتَابِ؛ لِأَنَّ مَقْصِدَ الْعَالِمِ إِنَّمَا هُوَ تَفْهِيمُ الطَّالِبِ الْمَتْنَ أَوِ الْكِتَابَ، لَا حَشْوُ ذِهْنِهِ بِجَمِيعِ مَسَائِلِ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الْمَجَالِسِ.

فَاحْرِصْ يَا طَالِبَ الْعِلْمِ عَلَى التَّدَرُّجِ لِتَصِلَ إِلَى الْمَعَالِي، فَإِنَّ ذَلِكَ طَرِيقُ التَّمَتُّنِ وَالتَّمَكُّنِ فِي الْعِلْمِ.

وَمِنَ الْفِتَنِ فِي هَذَا الزَّمَانِ فِتْنَةُ سُوءِ الْأَدَبِ مَعَ الْعُلَمَاءِ، وَالطَّعْنُ فِيهِمْ وَفِي طَلَبَةِ الْعِلْمِ فَرَحًا بِالتَّزْكِيَاتِ:

وَقَدِ ابْتُلِيَ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ، بَلْ بَعْضُ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَلَعَلِّي أُعَرِّجُ عَلَى أَدَبِ السَّلَفِ مَعَ عُلَمَائِهِمْ وَمَشَايِخِهِمْ، وَمِنْ ذَلِكَ:

التَّأَدُّبُ مَعَ الْعُلَمَاءِ هُوَ أَفْضَلُ وَسِيلَةٍ لِأَخْذِ الْعِلْمِ الْكَثِيرِ عَنْهُمْ، وَأَمَّا عَدَمُ الِالْتِزَامِ بِالْأَدَبِ مَعَ الْعُلَمَاءِ فَهُوَ سَبَبُ الْحِرْمَانِ مِنْ عِلْمِهِمْ، وَسَوْفَ نَذْكُرُ صُوَرًا مِنْ تَأَدُّبِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ مَعَ عُلَمَائِهِمْ:

أَخْرَجَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ»، عَنْ طَاوُوسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: مِنَ السُّنَّةِ أَنْ يُوَقَّرَ الْعَالِمُ.

وَأَخْرَجَ الْخَطِيبُ فِي «الْجَامِعِ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي»، عَنِ الشَّعْبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَمْسَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِرِكَابِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَتُمْسِكُ لِي وَأَنْتَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: إِنَّا هَكَذَا نَصْنَعُ بِالْعُلَمَاءِ.

وَلَمْ يَقَعْ ذَلِكَ مِنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حَبْرِ الْأُمَّةِ وَتُرْجُمَانِ الْقُرْآنِ مَعَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَطْ، بَلْ مَعَ غَيْرِهِ أَيْضًا.

أَخْرَجَ الْخَطِيبُ فِي «الْجَامِعِ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي»، عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: رُئِيَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَأْخُذُ بِرِكَابِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، فَقِيلَ لَهُ: أَنْتَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ تَأْخُذُ بِرِكَابِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ يَنْبَغِي لِلْحَبْرِ

أَنْ يُعَظَّمَ وَيُشَرَّفَ.

وَأَخْرَجَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «السِّيَرِ»، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَقَدْ عَلِمَ المَحْفُوظُوْنَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ.

وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: كَانَ يَحْيَى بْنُ سَعِيْدٍ يُجَالِسُ رَبِيْعَةَ، فَإِذَا غَابَ رَبِيْعَةُ، حَدَّثَهُمْ يَحْيَى أَحْسَنَ الْحَدِيثِ-وَكَانَ كَثِيْرَ الْحَدِيثِ-، فَإِذَا حَضَرَ رَبِيعَةُ، كَفَّ يَحْيَى إِجْلَالًا لِرَبِيعَةَ، وَلَيْسَ رَبِيعَةُ أَسَنَّ مِنْهُ، وَهُوَ فِيمَا هُوَ فِيهِ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُبَجِّلًا لِصَاحِبِهِ.

وَأَخْرَجَ الْخَطِيبُ فِي «الْجَامِعِ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي»، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: كَانَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ يُحَدِّثُنَا، فَيَسِحُّ عَلَيْنَا مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ، وَيُشِيرُ عُبَيْدُ اللهِ بِيَدَيْهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى، قَالَ عُبَيْدُ اللهِ: فَإِذَا طَلَعَ رَبِيعَةُ قَطَعَ يَحْيَى حَدِيثَهُ إِجْلَالًا لِرَبِيعَةَ وَإِعْظَامًا لَهُ.

وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنْ شُعْبَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي سَيِّدُ الْفُقَهَاءِ أَيُّوبُ.

وَأَخْرَجَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «السِّيَرِ»، عَنْ حَاشِدِ بْنِ إِسْمَاعِيْلَ قَالَ: كُنْتُ بِالْبَصْرَةِ، فَسَمِعْتُ قُدُومَ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيْلَ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ بُنْدَارٌ: الْيَوْمَ دَخَلَ سَيِّدُ الْفُقَهَاءِ.

وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حَمْدُوْنِ بْنِ رُسْتُمَ قَالَ: سَمِعْتُ مُسْلِمَ بْنَ الْحَجَّاجِ وَجَاءَ إِلَى الْبُخَارِيِّ فَقَالَ: دَعْنِي أُقَبِّلْ رِجْلَيْكَ يَا أُسْتَاذَ الْأُسْتَاذِينَ، وَسَيِّدَ الْمُحَدِّثِيْنَ، وَطَبِيبَ الْحَدِيْثِ فِي عِلَلِهِ.

وَذَكَرَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «السِّيَرِ»، عَنِ ابْنِ مَاجَهْ الْقَزْوِيْنِيِّ قَالَ: جَاءَ يَحْيَى ابْنُ مَعِيْنٍ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، فَبَيْنَا هُوَ عِنْدَهُ، إِذْ مَرَّ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ عَلَى بَغْلَتِهِ، فَوَثَبَ أَحْمَدُ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَتَبِعَهُ فَأَبْطَأَ، وَيَحْيَى جَالِسٌ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ يَحْيَى: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! كَمْ هَذَا؟ فَقَالَ: دَعْ عَنْكَ هَذَا، إِنْ أَرَدْتَ الْفِقْهَ فَالْزَمْ ذَنَبَ الْبَغْلَةِ.

وَأَخْرَجَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «السِّيَرِ»، عَنْ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ الْمَكِّيِّ، عَنِ الزَّعْفَرَانِيِّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ مَعِيْنٍ، سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ سَعِيْدٍ يَقُوْلُ: أَنَا أَدْعُو اللهَ لِلشَّافِعِيِّ فِي صَلَاتِي مُنْذُ أَرْبَعِ سِنِيْنَ.

وَأَخْرَجَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ»، عَنِ الزُّهْرِيِّ: كَانَ أَبُو سَلَمَةَ يُمَارِي ابْنَ عَبَّاسٍ، فَحُرِمَ بِذَلِكَ عِلْمًا كَثِيرًا.

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ»: فُقَهَاءُ الْإِسْلَامِ، وَمَنْ دَارَتِ الْفُتْيَا عَلَى أَقْوَالِهِمْ بَيْنَ الْأَنَامِ، الَّذِينَ خُصُّوا بِاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ، وَعَنَوْا بِضَبْطِ قَوَاعِدِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ؛ فَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، بِهِمْ يَهْتَدِي الْحَيْرَانُ فِي الظَّلْمَاءِ، وَحَاجَةُ النَّاسِ إِلَيْهِمْ أَعْظَمُ مِنْ حَاجَتِهِمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

إِنَّ الْجِنَايَةَ عَلَى الْعُلَمَاءِ ثُلْمَةٌ فِي الدِّينِ، تُذْهِبُ آخِرَةَ الْعَبْدِ.

أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَاللَّفْظُ لَهُ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الدِّيكَ، فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ». فَلَئِنْ نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ سَبِّ الدِّيكِ لِأَنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَسُبُّ الْعُلَمَاءَ، وَيَطْعَنُ فِيهِمْ بَاطِنًا أَوْ ظَاهِرًا؟!! وَهُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَحُمَاةُ الدِّينِ بِإِذْنِ اللهِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَابُدَّ مِنَ النُّصْحِ، وَبَيَانِ الْخَطَأِ، وَلَكِنْ بِأَدَبٍ وَرِفْقٍ.

أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ وَابْنُ مَاجَهْ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُرْوَةُ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جَالِسٌ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ الضُّحَى فِي الْمَسْجِدِ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ صَلَاتِهِمْ فَقَالَ: بِدْعَةٌ، فَقَالَ لَهُ عُرْوَةُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، كَمِ اعْتَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: أَرْبَعَ عُمَرٍ إِحْدَاهُنَّ فِي رَجَبٍ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُكَذِّبَهُ وَنَرُدَّ عَلَيْهِ، وَسَمِعْنَا اسْتِنَانَ عَائِشَةَ فِي الْحُجْرَةِ، فَقَالَ عُرْوَةُ: أَلَا تَسْمَعِينَ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يَقُولُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ فَقَالَتْ: وَمَا يَقُولُ؟ قَالَ: يَقُولُ اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعَ عُمَرٍ إِحْدَاهُنَّ فِي رَجَبٍ، فَقَالَتْ: يَرْحَمُ اللهُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا اعْتَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا وَهُوَ مَعَهُ، وَمَا اعْتَمَرَ فِي رَجَبٍ قَطُّ.

وَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ وَقَعَ مَرَّاتٍ رَدُّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خَطَأَ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي أَدَبٍ جَمٍّ، وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْتَشِرِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ الرَّجُلِ يَتَطَيَّبُ ثُمَّ يُصْبِحُ مُحْرِمًا، فَقَالَ: مَا أُحِبُّ أَنْ أُصْبِحَ مُحْرِمًا أَنْضَخُ طِيبًا، لَأَنْ أَطَّلِيَ بِقَطِرَانٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ. فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَأَخْبَرْتُهَا أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: مَا أُحِبُّ أَنْ أُصْبِحَ مُحْرِمًا أَنْضَخُ طِيبًا، لَأَنْ أَطَّلِيَ بِقَطِرَانٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَا طَيَّبْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ إِحْرَامِهِ، ثُمَّ طَافَ فِي نِسَائِهِ، ثُمَّ أَصْبَحَ مُحْرِمًا.

وَمِنْ بَعْدِ الصَّحَابَةِ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ الْأَئِمَّةُ تُجَاهَ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ، وَمِنْ ذَلِكَ:

قَالَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مُسْتَخْرَجِهِ» مُسْتَدْرِكًا مَسْأَلَةً عَلَى الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: رَحِمَ اللهُ أَبَا عَبْدِ اللهِ - يَعْنِي الْبُخَارِيَّ - مَنْ ذَا الَّذِي يَسْلَمُ مِنَ الْغَلَطِ.

وَأَخْرَجَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي: «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ»، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مِنْ حَقِّ الْعَالِمِ أَلَّا تُكْثِرَ عَلَيْهِ بِالسُّؤَالِ، وَلَا تُعْنِتَهُ بِالْجَوَابِ، وَأَنْ لَا تُلِحَّ عَلَيْهِ إِذَا كَسِلَ، وَلَا تَأْخُذَ بِثَوْبِهِ إِذَا نَهَضَ، وَلَا تُفْشِيَنَّ لَهُ سِرًّا، وَلَا تَغْتَابَنَّ عِنْدَهُ أَحَدًا، وَلَا تَطْلُبَنَّ عَثْرَتَهُ، وَإِنْ زَلَّ قَبِلْتَ مَعْذِرَتَهُ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُوَقِّرَهُ وَتُعَظِّمَهُ لِلَّهِ مَا دَامَ يَحْفَظُ أَمْرَ اللهِ، وَلَا تَجْلِسَنَّ أَمَامَهُ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ سَبَقْتَ الْقَوْمَ إِلَى خِدْمَتِهِ.

وَأَخْرَجَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْجَامِعِ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ»: عَنِ اللَّيْثِ قَالَ: كَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ يَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَجْلِسُ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَبْنَاءُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَلَا يَجْتَرِئُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَسْأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَبْتَدِئَهُمْ بِحَدِيثٍ، أَوْ يَجِيئَهُ سَائِلٌ فَيَسْأَلُ فَيَسْمَعُونَ.

وَأَخْرَجَ أَيْضًا: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَرْمَلَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: مَا كَانَ إِنْسَانٌ يَجْتَرِئُ عَلَى سَعِيدِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ يَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى يَسْتَأْذِنَهُ كَمَا يُسْتَأْذَنُ الْأَمِيرُ.

وَأَخْرَجَ أَيْضًا: عَنْ مُحَمَّدٍ - يَعْنِي ابْنَ سِيرِينَ - قَالَ: رَأَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ ابْنَ أَبِي لَيْلَى وَأَصْحَابُهُ يُعَظِّمُونَهُ وَيُسَوِّدُونَهُ وَيُشَرِّفُونَهُ مِثْلَ الْأَمِيرِ.

وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْخَلَّالِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ مُعْتَمِرِ بْنِ سُلَيْمَانَ يُحَدِّثُنَا، إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ الْمُبَارَكِ، فَقَطَعَ مُعْتَمِرٌ حَدِيثَهُ، فَقِيلَ لَهُ: حَدِّثْنَا، فَقَالَ: إِنَّا لَا نَتَكَلَّمُ عِنْدَ كُبَرَائِنَا.

وَفِي «تَذْكِرَةِ الْحُفَّاظِ» لِلذَّهَبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: عَنْ مُغِيرَةَ قَالَ: كُنَّا نَهَابُ إِبْرَاهِيمَ - يَعْنِي النَّخَعِيَّ - كَمَا يُهَابُ الْأَمِيرُ.

وَذَكَرَ رَحِمَهُ اللهُ أَيْضًا فِي «سِيَرِ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ رَافِعٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقَ عِنْدَ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، فَجَاءَنَا يَوْمُ الْفِطْرِ، فَخَرَجْنَا مَعَ عَبْدِ الرَّزَّاقِ إِلَى الْمُصَلَّى، وَمَعَنَا نَاسٌ كَثِيْرٌ، فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنَ الْمُصَلَّى، دَعَانَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ إِلَى الْغَدَاءِ، فَجَعَلَنَا نَتَغَدَّى مَعَهُ، فَقَالَ لِأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ: رَأَيْتُ الْيَوْمَ مِنْكُمَا شَيْئًا عَجَبًا، لَمْ تُكَبِّرَا !!

قَالَا: يَا أَبَا بَكْرٍ، نَحْنُ نَنْظُرُ إِلَيْكَ هَلْ تُكَبِّرُ، فَنُكَبِّرَ، فَلَمَّا رَأَيْنَاكَ لَمْ تُكَبِّرْ، أَمْسَكْنَا.

قَالَ: وَأَنَا كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَيْكُمَا، هَلْ تُكَبِّرَانِ، فَأُكَبِّرَ.

وَذَكَرَ أَيْضًا عَنِ الثَّوْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعَ أَبَا وَائِلٍ سُئِلَ: أَنْتَ أَكْبَرُ أَوِ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ؟

قَالَ: أَنَا أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًّا، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنِّي عَقْلًا.

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى»: وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ قَدْ عَلَّمَهُ أُسْتَاذٌ، عَرَفَ قَدْرَ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِ وَشَكَرَهُ.

فَالتَّأَدُّبُ مَعَ الْعُلَمَاءِ مِنْ شِيَمِ النُّبَلَاءِ، فَيَا طَالِبَ الْعِلْمِ هَلْ يَلِيقُ بِكَ أَنْ تَتْرُكَ الْأَدَبَ مَعَ شَيْخِكَ بَعْدَ كُلِّ هَذَا؟!!

شَهْوَةُ الْكَلَامِ فِي النَّوَازِلِ دُونَ الرُّجُوعِ إِلَى الْعُلَمَاءِ:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

قَالَ الْعَلَّامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَعْدِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللهِ لِعِبَادِهِ عَنْ فِعْلِهِمْ هَذَا غَيْرِ اللَّائِقِ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ، وَالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ، مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَمْنِ، وَسُرُورِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ بِالْخَوْفِ الَّذِي فِيهِ مُصِيبَةٌ، عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَثَبَّتُوا، وَلَا يَسْتَعْجِلُوا بِإِشَاعَةِ ذَلِكَ الْخَبَرِ، بَلْ يَرُدُّونَهُ إِلَى الرَّسُولِ، وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ، أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْعِلْمِ وَالنُّصْحِ وَالْعَقْلِ وَالرَّزَانَةِ، الَّذِينَ يَعْرِفُونَ الْأُمُورَ، وَيَعْرِفُونَ الْمَصَالِحَ وَضِدَّهَا، فَإِنْ رَأَوْا فِي إِذَاعَتِهِ مَصْلَحَةً وَنَشَاطًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَسُرُورًا لَهُمْ، وَتَحَرُّزًا مِنْ أَعْدَائِهِمْ فَعَلُوا ذَلِكَ، وَإِنْ رَأَوْا أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ، أَوْ فِيهِ مَصْلَحَةٌ وَلَكِنْ مَضَرَّتُهُ تَزِيدُ عَلَى مَصْلَحَتِهِ لَمْ يُذِيعُوهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أَيْ: يَسْتَخْرِجُونَهُ بِفِكْرِهِمْ، وَآرَائِهِمُ السَّدِيدَةِ، وَعُلُومِهِمُ الرَّشِيدَةِ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ لِقَاعِدَةٍ أَدَبِيَّةٍ، وَهِيَ أَنَّهُ إِذَا حَصَلَ بَحْثٌ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ، يَنْبَغِي أَنْ يُوَلَّى مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِذَلِكَ، وَيُجْعَلَ إِلَى أَهْلِهِ، وَلَا يُتَقَدَّمَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ، وَأَحْرَى لِلسَّلَامَةِ مِنَ الْخَطَأِ، وَفِيهِ النَّهْيُ عَنِ الْعَجَلَةِ، وَالتَّسَرُّعِ لِنَشْرِ الْأُمُورِ مِنْ حِينِ سَمَاعِهَا، وَالْأَمْرُ بِالتَّأَمُّلِ قَبْلَ الْكَلَامِ، وَالنَّظَرِ فِيهِ: هَلْ هُوَ مَصْلَحَةٌ فَيُقْدِمُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، أَمْ لَا فَيُحْجِمُ عَنْهُ.

وَسُئِلَ شَيْخُنَا الْعَلَّامَةُ صَالِحُ الْفَوْزَانُ حَفِظَهُ اللهُ «عَلَى مَوْقِعِهِ»:

أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكُمْ، هَذَا السَّائِلُ يَقُولُ: هُنَاكَ مَنْ يَتَصَدَّرُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْكَلَامِ فِي النَّوَازِلِ، سَوَاءٌ كَانَتِ الْقَرِيبَةَ أَوِ الْبَعِيدَةَ، وَهَلْ هَذَا يُعَدُّ مِمَّا يُفَرِّقُ الْكَلِمَةَ؟

فَأَجَابَ حَفِظَهُ اللهُ:

مَا نَدْرِي عَنْ كَلَامِهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي النَّوَازِلِ إِلَّا أَهْلُ الْعِلْمِ ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾: هَذِهِ هِيَ النَّوَازِلُ، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ﴾: يُرَدُّ هَذَا إِلَى سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَإِلَى أَهْلِ الْعِلْمِ، وَإِلَى أَهْلِ الرَّأْيِ مِنْ وُلَاةِ الْأُمُورِ أَيْضًا، أَهْلُ السِّيَاسَةِ وَأَهْلُ الرَّأْيِ مِنْ وُلَاةِ الْأُمُورِ، مَعَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالشَّرْعِ، يُرَدُّ إِلَيْهِمُ النَّوَازِلُ يَنْظُرُوا فِيهَا.

الْخَامِسُ: التَّحَزُّبُ حَوْلَ فَاقِدِي التَّأْصِيلِ الْعِلْمِيِّ:

لَقَدِ ابْتُلِينَا بِأَقْوَامٍ مِنَ الْمُقَلِّدَةِ، رَفَعُوا أُولَئِكَ الرُّوَيْبِضَةَ، وَظَنُّوهُمْ عُلَمَاءَ رَبَّانِيِّينَ، وَهُمْ أَبْعَدُ مَا يَكُونُونَ عَنِ الْعِلْمِ وَالرَّبَّانِيَّةِ؛ فَحَزَّبُوا الشَّبَابَ حَوْلَ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالِ، مِمَّا أَدَّى إِلَى تَصَدُّعِ الصَّفِّ، وَضَعْفِ الْقُوَّةِ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

إِنَّ هَذِهِ الْحِزْبِيَاتِ الْمَقِيتَةَ شَتَّتَتِ الْأُمَّةَ، وَفَرَّقَتْ شَمْلَهَا، وَأَضْعَفَتْ صَفَّهَا، وَنَشَرَتْ بَيْنَهَا الْأَحْقَادَ وَالضَّغَائِنَ، فَارْتَفَعَتِ الشِّعَارَاتُ الشَّيْطَانِيَّةُ، وَتَعَدَّدَتِ الرَّايَاتُ الْعُنْصُرِيَّةُ، وَكَثُرَتِ التَّعَدُّدَاتُ الْحِزْبِيَّةُ الَّتِي فَرَّقَتِ الْمُجْتَمَعَ، وَأَفْسَدَتِ الْأُمَّةَ، وَخَلْخَلَتِ الصُّفُوفَ، يَقُولُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٥٣]، وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الروم: ٣١، ٣٢].

إِنَّ الْحِزْبِيَّةَ لَمْ تَدْخُلْ مُجْتَمَعًا إِلَّا فَرَّقَتْهُ، وَلَا صَالِحًا إِلَّا أَفْسَدَتْهُ، وَلَا كَثِيرًا إِلَّا قَلَّلَتْهُ، وَلَا قَوِيًّا إِلَّا أَضْعَفَتْهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ حِزْبٍ مُعَيَّنٍ جَعَلَ مِحْوَرَ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ وَالْحُبِّ وَالْعَدَاءِ لِأَصْحَابِهِ وَأَعْضَاءِ حِزْبِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ.

فَعَلَيْنَا أَنْ نُنَزِّهَ أَنْفُسَنَا مِنْ هَذِهِ الْوَلَاءَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْحِزْبِيَّاتِ الْعُنْصُرِيَّةِ، وَأَنْ نَتَبَرَّأَ مِنْهَا، وَنَنْخَلِعَ مِنْ رِبْقَتِهَا، وَلَا نَحْجِزَ أَنْفُسَنَا فِي دَاخِلِ أَحْزَابٍ.

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ هَذِهِ الِانْتِمَاءَاتِ، وَهَذِهِ الْوَلَاءَاتِ، وَهَذِهِ الْحِزْبِيَّاتِ الْمُخَالِفَةِ لِمَنْهَجِ اللهِ، الْمُتَعَارِضَةِ مَعَ شَرْعِ اللهِ، وَعَلَيْنَا أَنْ نُخْلِصَ دِينَنَا لِلَّهِ، وَأَنْ نَفْتَخِرَ بِانْتِمَائِنَا لِأَحْكَامِ اللهِ، وَلْنَقْطَعْ كُلَّ الْأَفْكَارِ وَالتَّصَوُّرَاتِ وَالْمَنَاهِجِ الْمُخَالِفَةِ لِشَرْعِ اللهِ.

أَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْمِشْكَاةِ» عَنِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «... وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ صَامَ

وَإِنْ صَلَّى؟ قَالَ: «وَإِنْ صَامَ وَإِنْ صَلَّى، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ، بِمَا سَمَّاهُمُ اللهُ ﷻ: الْمُسْلِمِينَ، الْمُؤْمِنِينَ، عِبَادَ اللهِ ﷻ».

إِنَّ الْمُتَعَالِمِينَ كَمْ جَرُّوا عَلَى أُمَّتِهِمْ مِنْ وَيْلَاتٍ، وَعَلَى تَارِيخِهِمْ مِنْ مَخَازٍ، يَنْبُو عَنْهَا الْأَرِيبُ، وَيَسْتَعِيذُ مِنْهَا الْحَكِيمُ، فَشَتَّانَ بَيْنَ طَالِبِ عِلْمٍ مُتَأَصِّلٍ، رَبَّاهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَأَدَّبَ بِآدَابِهِمْ، وَبَيْنَ خُنْفُشَارِيٍّ، مُتَشَبِّعٍ بِمَا لَنْ يُعْطَ، غَرَّهُ أَشْبَاهُ الطُّلَّابِ الَّذِينَ يُثْنُونَ عَلَيْهِ.

صِدْقُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَكِفَايَةُ اللهِ لَهُ:

أَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «الْحِلْيَةِ» عَنِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: لَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَطْلُبَ الْعِلْمَ قُلْتُ: يَا رَبِّ، إِنَّهُ لَابُدَّ لِي مِنْ مَعِيشَةٍ، وَرَأَيْتُ الْعِلْمَ يُدْرَسُ، فَقُلْتُ: أُفَرِّغُ نَفْسِي لِطَلَبِهِ، وَسَأَلْتُ رَبِّي الْكِفَايَةَ، وَالتَّشَاغُلَ لِطَلَبِ الْعِلْمِ، فَمَا رَأَيْتُ إِلَّا مَا أُحِبُّ إِلَى يَوْمِي هَذَا».

السادس: تَشَبُّعُ الطَّالِبِ بِمَا لَمْ يُعْطَ:

أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ لِي ضَرَّةً، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ أَنْ أَتَشَبَّعَ مِنْ مَالِ زَوْجِي بِمَا لَمْ يُعْطِنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ».

قَالَ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْمِنْهَاجِ»: قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ الْمُتَكَثِّرُ بِمَا لَيْسَ عِنْدَهُ، بِأَنْ يُظْهِرَ أَنَّ عِنْدَهُ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ، يَتَكَثَّرُ بِذَلِكَ عِنْدَ النَّاسِ، وَيَتَزَيَّنُ بِالْبَاطِلِ، فَهُوَ مَذْمُومٌ كَمَا يُذَمُّ مَنْ لَبِسَ ثَوْبَيْ زُورٍ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ وَآخَرُونَ: هُوَ الَّذِي يَلْبَسُ ثِيَابَ أَهْلِ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْوَرَعِ، وَمَقْصُودُهُ أَنْ يُظْهِرَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِتِلْكَ الصِّفَةِ، وَيُظْهِرُ مِنَ التَّخَشُّعِ وَالزُّهْدِ أَكْثَرَ مِمَّا فِي قَلْبِهِ، فَهَذِهِ ثِيَابُ زُورٍ وَرِيَاءٍ.

إِنَّ مُتَعَاطِي هَذَا الْخُلُقِ الْمَشِينِ قَدْ سَيْطَرَ عَلَيْهِ حُبُّ الْفَخْرِ حَتَّى مَلَأَ قَلْبَهُ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ»: إِنَّ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُ أَحَبَّ الْمَدْحَ

وَكَرِهَ الذَّمَّ، فَرُبَّمَا حَمْلَهُ ذَلِكَ عَلَى تَرْكِ كَثِيرٍ مِنَ الْحَقِّ خَشْيَةَ الذَّمِّ، وَعَلَى فِعْلِ كَثِيرٍ مِنَ الْبَاطِلِ رَجَاءَ الْمَدْحِ، فَمَنِ اسْتَوَى عِنْدَهُ حَامِدُهُ وَذَامُّهُ فِي الْحَقِّ دَلَّ عَلَى سُقُوطِ مَنْزِلَةِ الْمَخْلُوقِينَ مِنْ قَلْبِهِ، وَامْتِلَائِهِ مِنْ مَحَبَّةِ الْحَقِّ، وَمَا فِيهِ رِضَا مَوْلَاهُ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: الْيَقِينُ أَنْ لَا تُرْضِيَ النَّاسَ بِسُخْطِ اللهِ. وَقَدْ مَدَحَ اللهُ الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ.

إِنَّ لِلتَّشَبُّعِ ظَوَاهِرَهُ وَآثَارَهُ السَّيِّئَةَ، فَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَسَأَذْكُرُ بَعْضًا مِنْهَا:

أَوَّلًا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ حَذَّرَ مِنْهُ وَنَفَّرَ عَنْهُ. وَهَذَا كَافٍ لِتَرْكِهِ.

ثَانِيًا: إِنَّ صَاحِبَهُ مُتَشَبِّهٌ بِمَنْ يَلْبَسُ ثِيَابَ الزُّورِ وَالْبُهْتَانِ وَالظُّلْمِ.

ثَالِثًا: إِنَّ هَذَا الدَّاءَ يُورِثُ الْكِبْرَ، والتَّعَاظُمَ، وَحُبَّ الثَّنَاءِ عَلَى النَّفْسَ؛ فَيُبْتَلَى صَاحِبُهُ بِحُبِّ مَدْحِ النَّاسِ وَتَمْجِيدِهِمْ لَهُ.

رَابِعًا: إِنَّ هَذَا مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الرِّيَاءِ الْكَاذِبِ، وَهُوَ مِنْ أَوْسَعِ أَبْوَابِ الْغَشِّ وَالْخِدَاعِ.

خَامِسًا: إِنَّ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ قَدْ تُؤَدِّي إِلَى سَلْبِ حُقُوقِ الْآخَرِينَ؛ فَالْمُتَشَبِّعُ دَائِمًا مَا يَنْسِبُ الفَضْلَ لِنَفْسِهِ، مَعَ أَنَّ غَيْرَهُ قَدْ يَكُونُ بَذَلَ أَضْعَافَ مَا بَذَلَهُ لِإِنْهَاءِ مَوْضُوعٍ مَا.

سَادِسًا: إِنَّ صَاحِبَهَا قَدْ وَضَعَ نَفْسَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا الْحَقِيقِيِّ، وَأَنْزَلَهَا فِي غَيْرِ مَنْزِلِهَا.

سَابِعًا: إِنَّ مُرْتَكِبَهَا قَدِ اسْتَحَقَّ سَخَطَ اللهِ وَمَقْتَهُ.

ثَامِنًا: إِنَّ صَاحِبَهَا قَدِ اتَّصَفَ بِصِفَاتِ أَهْلِ الزُّورِ وَالظُّلْمِ.

تَاسِعًا: فَتْحُ مُرْتَكِبِهَا عَلَى نَفْسِهِ بَابَ الْكَذِبِ، وَاسْتِسْهَالُهُ حَتَّى يَسْتَمْرِئَهُ، وَيُصْبِحَ جُزْءًا مِنْ حَيَاتِهِ.

عَاشِرًا: إِنَّ الْمُتَشَبِّعَ بِمَا لَمْ يُعْطَ يَعِيشُ حَالَةً مِنَ الْقَلَقِ؛ بِسَبَبِ خَوْفِهِ مِنِ انْكِشَافِ الْحَقِيقَةِ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى فُقْدَانِ الثِّقَةِ بِهِ.

وَالتَّشَبُّعُ بِمَا لَمْ يعُطَ لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِمَّنْ يَشْعُرُونَ بِالنَّقْصِ؛ فَيُرِيدُونَ أَنْ يَنَالُوا ثِقَةَ النَّاسِ بِهِمْ بِهَذِهِ الْأَفْعَالِ الْمُزَوَّرَةِ.

أَخِي طَالِبَ الْعِلْمِ: إِلَى هُنَا أَكُونُ قَدِ انْتَهَيْتُ مِمَّا أَرَدْتُ إِيقَافَكَ عَلَيْهِ مِنْ عَوَائِقَ فِي طَرِيقِكَ لِطَلَبِ الْعِلْمِ؛ كَيْ تَتَجَنَّبَهَا.

أَسْأَلُ اللهَ لَكَ التَّوْفِيقَ لِلْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

الخاتمة:

أخي طالب العلم: هذه نبذ يسيرة من حياة علمائنا السابقين واللاحقين، يدرك المرء منها كيف كان عيش الكثير منهم، يتدثرون الفقر، ويمتطون المصاعب والشدائد صابرين، مع إظهار الغنى، وما سقته هنا ما هو إلا نذراً يسيراً من أحوالهم، شهدنا في هذه الصفحات أن مرحلة تحصيل العلم مرحلة صعبة شاقة جداً، تنقطع دون بلوغها حيازيم الصبر، وتنحسر أمامها عزمات الرجال، ولا يصبر على اجتيازها إلا الأفذاذ الأبطال.

* **أخي القاريء اللبيب**: ومع ملاحظة الفارق بيننا وبينهم، فيما كانوا عليه من العشر في الأمور المعاشية، والشؤون اليومية، في شأن الماء والطعام والضوء والمواصلات ووسائل الكتابة وما يتصل بها، فلا ماء إلا بجهد شديد، ولا طعام بسهولة ويسر، ولا ضوء يصحبهم حيث شاءوا، ولا سيارة ولا طيارة تقلهم حيث رغبوا.

ومع كل هذا جاءوا بالعجب العجاب، فكانت همة أحدهم أقوى من جسمه، وعزيمته أمضى من قلمه.

* **أخي طالب العلم**: إن بذل الجهد في الطلب والتحصيل، وتحمل المشاق والمتاعب، والتغلب على الصعاب والعقبات هو طريق الوصول إلى ما وصل إليه سلفنا الصالح.

* أما من ترجى الأماني، وصاحب التواني، واستروح الراحة، واستحلى الرفاهية، واستلذ المطاعم، واستجمل الملابس، واستحب النوم الطويل، وشغلته تقلبات الفصول عن الأخذ والتحصيل، فما أبعد العلم منه، وحاله كما قيل:

إذا كان يؤذيك حر الصيف ... ويبس الخريف وبرد الشتا

ويلهيك حسن زمان الربيع ... فأخذك للعلم قل لي متى؟

أخي القارئ: هذا مجمل ما أردت قوله، وأرجو الله تعالى أن أكون وفقت للصواب، وما هي إلا

إشارات، بعضها متمنـًا فات، وبعضها لا يزال في بطون المؤلفات، لم آت فيها على آخر الإرادة، ولـم أزعـم أني أوفيـت على الغاية في الإفادة ، ولكن لا ضير أن أصـف النجم في ثراه، وإن لـم أستقر في دراه، وما هي إلا لبنة على الطريق، وأرجو أن تكون بقدر الياقوت والعقيق، وما أراني بعد قد شفيت علة النفس وبلغت بها أمنيتها، فإنها تنظر إلى كثير وكثير، وأما أنا فإني أشد فقراً إلى عون من الله تعالى وتثبيت وتوفيق، أسأل الله بأسمـائـه الحسنى وصفاته العلى أن ينفع بهذه الإشارات القليلة، وأن يتقبل مني ويصلح السريرة، هو ولي ذلك والقادر عليه، إنه سبحانه خير مسؤول.

تم الانتهاء منه بفضل الله وتوفيقه بالرياض، ظهيرة الخميس، الثاني من شهر شعبان لعام ألف وأربعمائة واثنين وعشرين من هجرة المصطفى ﷺ.